أم النبي

عليه الصلاة والسلام

تأليف

الدكتوره عائشة عبد الرحمن

«بنت الشاطئ»

أستاذ الدراسات القرآنية بكلية الشريعة ودار الحديث
جامعة القرويين بالمغرب

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش تأكل القديد »

محمد رسول الله

مناجاة

أمنا « آمنة » ..

ما تلوتُ من وحى السماء الى وحيدك الحبيب ، حديثه الجهير عن بشريته :

« انما أنا بشر مثلكم .. »

« سبحان ربى ، هل كنت الا بشرا رسولا »

إلا ذكرت أن نبينا الكريم ، هو الانســـان الذى حملتِه جنينـا ، ووضعتِه كما تضع كل أنثى من البشر ..

ولا تدبرتُ معنى قوله تعالى لابنك الخالد :

« وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى إليهم »

الا تنبهت الى أن لهؤلاء القادة الرسل أمهات ، وأن المرأة التى أنجبت البطل فى كل صورة ، وفى كل حين ، هى التى قامت عن «عيسى بن مريم» كلمة الله التى ألقاها الى العذراء المصطفاة ، وهى التى جاءت « بمحمد » رسول الله وخاتم النبيين ، عليه الصلاة والسلام .

وهذا صوت وحيدك يملأ سمع الزمان على مر الآباد :

« إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » فيحقر كبرياء الأباطرة والملوك ، ويسمو بأمومتك الى أفق لا يتطاول اليه ترف الغنى ولا جاه السلطان ، اذ يجعل منك أيتها الأنثى الوديعة المتواضعة ، والأم الطيبة الرءوم ، مبعث أنسه ، وروح انسانيته ، وآية محبته ، وموضع اجلاله واعتزازه ..

يا أم المصطفى ..

هو أبدا مجـد الأمومة الذى خلّد واهباتِ الحيـاة على الدهر ،

وصانعات التاريخ منذ الأزل والى الأبد ، فأى عز للأمومة فيك ، وراء كلمة وحيدك المصطفى :

« الجنَّة تحت أقدام الأمهات »

وهو أبدا فخر الأنوثة التى حَمَت سر الوجود فى هـذا الـكون ، وحفظت حياة الانسانية فى هذه الدنيا ، اذ حملت أجنَّة البشرية وهناً على وهن ، فأى شعور غامر كان يملأ قلب ولدك ، حين قال لمن سأله عن أحق الناس بإكرامه : أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم أكرم أمك ، ثم .. أباك ؟! وحين جاءه أحد اصحابه يبتغى ان يخرج مجاهدا معه ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما عرف الرسول أن أمه حية ، قال له : ويحك ! الزم رِجلَها فثَمَّ الجنة ؟!

ياسيدة الأمهات ..

عن مجد الأمومة فيك ، أتحدث اليوم عن سيدة الأمهات التى جادت على الانسانية بوليد وحيد ، حملت الملايين لواءه فى أرجاء الأرض على مرّ الزمن ..

يتيم ، اعتز به الآباء الصيد والأصولُ الأمجاد ..

فقير ، حييت باسمه الدُّنَى وفاضت الخيرات

أُمى ، علَّم النـاس الكتاب والحكمة ، وقادهم من الظلمـات إلى النور ..

وأى عمل لك يا سيدة الأمهات ، أجل وأمجد ، من أنكِ كنت المنجبة لهذا المصطفى الرجل ، ووالدة ذلك الرسول البطل ؟..

وهأنذى أقف خاشعة أمام سيرتك ، وقد حفَّت بها من أمومتك أضواء باهرة السنا ، فيكاد جلالك يثنينى عن اطالة النظر اليك ، والحديث عنك ، لولا أن أعود فأذكر أنك أم «محمد» الذى أصرَّ على الاعتراف ببشريته ، فكان هذا الاعتراف منه ، آيةَ عظمتك وسر خلودك !

الفصل الأول

سيدة الأمهات

- هذه السيرة ومصادرها
- أنوثة وأمومة ..
- أمهات الأنبياء ..

هذه السيرة ومصادرها

بدأت هذه المحاولة فى درس سيرة « السيدة آمنة » وأنا أعى أتم الوعى ، نقصَ المصادر والأخبار التى تتحدث عن تلك الأم المنجبة ، لكنى قدرتُ انى انما أحدث عن والدة خير البشر ، وأم المصطفى الذى هو فى حساب الحياة صفوة جنسه وخلاصة قومه ، ومن ثَم مضيت ألتمس ملامحها ، فى صورة ابنها العظيم الذى غذاه دمها ، واتصلت حياته بحياتها ، فلقد كان « محمد » هو الأثر الجليل الذى خلفته « آمنة » ، فليس بعجيب أن أراها فى ضوء هذا الأثر ، وأن يكون فهمى لها عن طريق أمومتها لولدها العظيم .

فهذا الحديث عن « آمنة بنت وهب » يتخذ من شخصية ابنها مصدرا هاما نستعين به على فهم شخصيتها ، وذلك بما تركت فيه من أثر واضح ، وما نقلت اليه من دماء قومها الكرام الذين تنقل فى أصلابهم جيلا بعد جيل ، وما حملته اليه من خصائص الأرومات الأولى التى اعتز بالانتساب اليها فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام ، ان الله اختاره من كنانة ، واختار كنانة من قريش ، واختار قريشا من العرب ، فهو خيار من خيار من خيار وقوله :

« أنا ابن العواتك من سُلَيْم »

***

ثم كان لى الى جانب هذا المصدر ، ما وعى التاريخ من أخبار آباء « آمنة » وأجدادها نساء ورجالا ، وما حفظ لنا من طابع البيئة التى نشأت فيها ، وما عرفت الحياة من صورة الأنوثة والأمومة عند قومها ، وما اطمأن اليه العلم من ترابط الأسباب وتناسق الاصول ومجرى الوراثة، وفى هذا كله ما يجلو شخصية « آمنة » كما عرفتها دنياها ، وصنعتها بيئتها ووراثتها وظروفها ..

ذلك أن « آمنة » لم تكن سوى ثمرة للبيئة والوراثة ، قد جرت فى عروقها دماء أصولها الأولى ، ونمتها العوامل التى تركت طابعها الخاص فى كل ما أحاط بها من ظروف الزمان والمكان .

أجل هى ثمرة طبيعية ، يستطيع الدارس المحقق أن يلتمس جذورها الأصيلة الممتدة فى أعماق منبتها وأعراق آلها ، وأن يستبين ملامحها وسماتها فى الهواء الذى تنفسته والجو الذى عاشت فيه ، فاذا لديه تفسير مقبول لأكثر ما حسبه بعض الناس خوارق مباغتة ومفاجآت عجيبة ، ناسين أنها أم الرسول الكريم الذى أصرّ على الإقرار ببشريته ، ولم يكن ليرضيه قط أن تبرأ أمه من هذه البشرية ، أو أن يضاف اليها ما يشذ بها عن سنة الله التى فطر الناس عليها ، أو أن تلوّن شخصيتها بما يجعل ولدها كائنا عجيبا لم ينْمِه عرق ، ولا أمدّه أصل ، ولا غذّته وراثة ، ولا نهضت به بيئة ..

***

على أنى حين مضيت فى تتبع الأصول البعيدة الآمنة ، ولمح المعالم الواضحة لدنياها ، ألفيت الى جانب مايطمئن اليه العلم من مجرى الوراثة وفعل البيئة ، حشدا من آثار أخرى ليست من ذاك الصنف الأول ولا هى من واديه .. آثار يحرص كثير من الدارسين المحدثين على تجاهلها ، اذ يرون فيها طابع الخيال وظل الوضع . وفاتهم أن ينتبهوا الى دلالتها الاجتماعية التى لا تكذب ، والتى تمد الدارس بأضواء تكشف عما وراء التاريخ المادى من عالم نفسى ، وتكمل ماتتركه الأخبار من ثغرات فى فهم طبيعة المجتمع

تلك الآثار ، هى ماخلفه لنا قوم رأوا فى السيدة « آمنة » صورة الكمال المطلق لأم رسول ، فتحدثوا عنها بوحى من قلوبهم المحبة ، ودافع من وجدانهم المؤمن ، ما كذبوا فى ذلك ولا وهموا ..

ولغيرهم من أهل العلم والتحقيق أن يقولوا ما يأذن به الدرس المنهجى ، وراء دنيا الوجدان ، وبعيدا عن عالم القلوب ، ودون أفق الحب والايمان ، ولا بأس على هؤلاء ولا أولئك ، مما يقال هنا باملاء العقل

والواقع ، أو يقال هناك بلسان العاطفة والايمان ..

وكذلك يلتقى العلم والفن ، لا يعدوان على حقيقة ولا يجوران على صواب ، ولا يتّهمان بكذب : فاذا قال الدارس عن « آمنة » ما قال ، مستلهما البيئة والوراثة ، متتبعا المؤثرات والآثار فى الأصول والفروع ، فهو محق صادق غير متّهم ..

واذا قال فيها المحب الوامق والمؤمن الواثق ما قال ، بالهام الوجدان ، مفسرا بذلك مايشعر به من عظمتها ، معبرا عن صورتها عنده ، وحقيقتها فى تقديره ، وجوهرها فى قلبه ، فهو صادق محق كذلك ، لايسىء الى الواقع التاريخى فى شىء ، لأنه ليس من أهل هذا الواقع ، بل هو يتحدث عن عالم قلبه ويعبر عن دنيا وجدانه ، ويترجم عن تفسيره لما بهره من عظمة ، وما أحس من الانفعال بجمال تراه بصيرته ، وجلال يهز مشاعره ، وتلك دنياه لايشركه فيها أحد ، ولا يزاحمه فى آفاقها أحد ، مهما تتسع وتمتد ، أو تبعد وتترام ..

***

وأحسبنى بهذا القول ، قد مهدت لما أريد أن أقرره هنا ، من عنايتى البالغة بكل ما قيل عن « السيدة آمنة » ، لم أقتصر فى ذلك على الخبر التاريخى الثابت ، بل لم يكن اهتمامى به أكثر من اهتمامى بمرويات أخرى قد يقرؤها الدارس بعين العلم فيَجِم ، أو يسمعها المؤرخ بأذن التحقيق فيبرم ، وينسيه عالمه الواقعى ما وراءه من عوالم أخرى لأناس آخرين ، قد تمثلوا شخصية « أم النبى » كما شاءت قلوبهم المؤمنة ، وكما رسمته لهم قواهم الفنية وتأملاتهم الروحية وطاقاتهم التعبيرية . فقدموا لنا بذلك كله ، صورة « آمنة » فى نفوسهم ، وفسروا بذلك تاريخ الحياة كما فهموه وأدركوه .

وما أحسب المؤرخ الذى وهب حياته كلها للدرس المحقق ، يستطيع أن يجرد شخصية « آمنة » من كل هذا ، أو يزعم لنفسه أو للناس أنه قادر على أن يفهمها حق الفهم ، من غير أن يعرف كيف نظر أهل عصرها

اليها ، وكيف تمثّلها أبناء جيلها ، ثم كيف تنقلت صورتها مع الزمن ، وسارت على الأجيال .

فأنباء « آمنة » فى زوجيتها ، وحملها ، ووضعها ، وأمومتها — تلك الأنباء التى يحسبها بعض المحدثين من أساطير الأولين — تصور للمؤرخ حياة هذه الأم فى نفوس جيلها ومخيلة الذين جاءوا بعدها ، وبهذا التصوير ، يجد تفسيرهم لعناصر حياتها ، ومنه يعرف تحليلهم النفسى لشخصيتها .. وأنَّى لمؤرخ أن يستغنى عن ذلك فيما يعانى من تاريخ محقق ؟ ..

***

وأرانى الآن قادرة على أن أبسط منهجى فى فهم سيرة « آمنة بنت وهب » بعد أن هيأت القارىء لفهم هذا المنهج :

لقد بدأت أول مابدأت بدرس بيئتها وبيتها ، وتتبع الأصول البعيدة والملامح العامة للحياة العربية ، وحياة المرأة حينذاك ، لأجد من ذلك ما يطمئن اليه الحق التاريخى فى حياة « آمنة بنت وهب » .

وثانى الأمرين مما عمدت اليه فى هذه السيرة ، هو مايحلو لكثير من الدارسين — وبخاصة الأجانب — أن يسموه مناقب وأقاصيص ، ذلك أنى وجدت فى تلك المناقب ، صورة أحداث التاريخ فى نفوس الذين عاشوا فى بيئة أم المصطفى ، أو اتصلوا بها وتمثلوها . وكان هذا الفهم النفسى للأحداث ، معينا لى على تبين شخصية « آمنة » وتقديرها تقديرا يكشف عن ملامحها ويفسر آثارها .. كما كان الذى رووه من أحلام « آمنة » ورؤاها ، أو تصوروه من أمانيها وآمالها ، صورا نفسية بشرية ، تمثلها المتمثلون لأمومتها وحيويتها ، وتلك مادة للتاريخ الحق ، وان بدت فى صورة الخيال الطليق الملهم الذى لا أراه يجور على الحقيقة بحال .

أنوثة وأمومة

« انا ابن العواتك من سليم »

(حديث شريف)

لا نرى أن نمضى فى الحديث عن احدى صانعات التاريخ قبل أن نلم بمكانة الأم فى الجزيرة الى عهد « آمنة »

ذلك أنه قد شاع فينا أن المرأة فى الجاهلية قد كانت ــ فى خير حالاتها ــ متاعا للرجل ، وأنها عانت من صنوف الاستعباد والهوان ما أنقذها منه الاســلام . وعلى الرغم مما نقل الينا من أخبار تدل على ماكان للمرأة العربية فى الجاهلية من مكانة مرموقة ومآثر لم تضع مع السنين والقرون ، فإن تلك الأخبار لم تذع فينا كما ذاعت الأخبار الأخرى التى تتحــدث عن وأد البنات وانتقال الزوجات بالميراث من الآباء الى الأبناء ، وما الى ذلك من مظاهر الضعة والهوان .

***

ولا نقول إننا ســنحاول هنــا أن ننصف المرأة العربية فى تلك العصور القديمة ، فالحق أن المؤرخين والرواة القدامى لم يضنوا عليها بتسجيل ما تناقلته الأخبار من مآثرها .. وكل عملنا هنا ، أن نختار من ذلك الذى سجلوه ، بعض مايصحح فكرتنا الشائعة عن الأنوثة والأمومة فى العرب قبل الاسلام ، وأن نضع الى جانب الروايات المشهورة عما لحق بها من ظلم ونبذ ، بعض ماتحدثوا به عن منزلتها الرفيعة ، وعزتها التى صينت بالدماء وافتديت بالمهج والأرواح ..

ويعنينــا هنــا بوجه خاص ، ماتعلق بالأمومة أو كان منها بسبب ، لنلتمس منه ضوءا يكشف عما لـ « آمنة » من فضل فى إنجاب خاتم الرسل وما كان لها من أثر فى تكوين ولدها الخالد الذى قال معتزا بأمهاته فى

الجاهلية :

« أنا ابن العواتك من سليم »

***

يلفت الذى يتصل عن قرب بما كتب الأقدمون عن الجزيرة ، حرص العرب فى جاهليتهم البعيدة على كرم النسب وطهارة الأرحام ونقاء الأصول . قال حكيمهم « أكثم بن صيفى » :

« لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب ، فإن المناكح الكريمة مَدرجة الشرف »

وقال شاعرهم (١) :

وأول خبثِ الماء خبثُ ترابه وأول خبث القوم خبثُ المناكح

ونقل « أبو عمرو بن العلاء » عن أحدهم :

« لا أتزوج امرأة حتى أنظر الى ولدى منها » . قيل له : « كيف ذاك ؟ » قال : « أنظر الى أبيها وأمها فإنها تجرُّ بأحدهما »

وقال قائلهم لبنيه :

« قد أحسنت إليكم صغارا وكبارا وقبل أن تولدوا » . قالوا : « وكيف أحسنت إلينا قبل أن نولد ؟ » . فأجاب : « اخترت لكم من الأمهات من لا تسَبُّون بها » (٢)

ومثله ما أنشده « الرياشى » يخاطب أبناءه :

وأول إحسانى اليكم تخيُّرى لماجدةِ الأعراق بادٍ عفافها

ولعل هذا الحرص منهم على كرم النسب ، يفسر لنا كراهتهم للسباء : حدثوا أن « فاطمة بنت الخرشب » رمت بنفسها من الهودج حين أُسِرت ، فماتت لساعتها وهى تقول كلمتها التى سارت مثلا :

« المنيةُ ولا الدنية »

وكان العربى ربما تزوج بسبيته وأنزلها من نفسه وقومه أكرم منزلة ، فلم ينف ذلك عنها مذلةَ الأسر ومعرَّته . من ذلك ما رووه من أن رجلا من

(١) ابن قتيبة : عيون الاخبار ــ ٣/٤ ط دار الكتب
(٢) ابن قتيبة : عيون الاخبار : ٣/٤

العرب استبى امرأة فولدت له سبعة بنين ، ثم قالت له يوما : « أزرني أهلى ليذهب عنى ذل السباء » .

ففعل .. فأبت أن تغادرهم مع فرط تعلقها بزوجها وثنائها عليه

وكذلك فعلت « سَلمى الغِفارية » زوج « عروة بن الورد العبسى » وكان شاعرا بطلا كريما ، أصاب « سلمى » فى إحدى الغزوات وكانت ذات جمال وأنَفة ، فأعتقها « عروة » وتزوجها وأقامت عنده بضع عشرة سنة ، ولدت له فيها أولادا ، وحلَّت من نفسه وقلبه أعز مكان ، لكن ذلك لم يُنسها مذلة السباء ، فقالت له يوما :

« ألا ترى ولدك يعيرون بأمهم ويسمون بنى الأخيذة ؟ »

سألها : « فماذا ترين ؟ »

أجابت : « أرى أن تردنى الى قومى حتى يكونوا هم الذين يسلموننى اليك ! »

فاستجاب لها ، وهو لايشك فى أنها سعيدة راضية ، صادقة الرغبة فى العيش معه ..

وخرج بها فحجَّ ، ثم عرَّج على أهلها زائرا ، فتحايلوا عليه بالخمر حتى رضى أن يخيروها بين الاقامة فيهم والعودة معه ، فاختارت « سلمى » أهلها وهى تقول :

« يا عروة ، أما انى لأقول فيك ــ وإن فارقتك ــ الحق : والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعلٍ خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة . لكن ، ما مرَّ علىَّ يوم منذ كنت عندك الا والموت فيه أحب الىَّ من الحياة بين قومك ، لأنى لم أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أَمَة عروة كذا وكذا . والله لا أنظر الى غطفانية أبدا ، فارجع راشدا الى ولدك وأحسن اليهم »

فانصرف عنها حزينا حسيرا ، وهو يقول قصيدته التى مطلعها البيت المشهور :

سقونى الخمر ثم تكنفونى   عداةُ الله من كذب وزور (١)

***

ولا أكاد أعرف — فيما قرأت — أمة قديمة بلغت كرامة الأمومة عندها ما بلغته عند العرب ، وقد روى « المبرِّد » فى « الكامل » (٢) أبياتا للسليك بن السلكة ، تعبر عما كان يرهقه ويضنيه من وجود اماء قد أذلهن الرق وأزرى بهن التبذل ، مع قصور يده عن افتدائهن جميعا ، كرامة لأمِّه — وكانت جارية حبشية — فذلك قوله :

آشاب الرأسَ أنى كلَّ يوم   أرى لى خالة بين الرحال

يشق علىَّ أنْ يلقين ضيما   ويعجز عن تخلصهن مالى

***

ولأبناء العقائل الكريمات حديث — أشبه بالقصص — عن حرصهم على عزة الأمومة وصيانتها بالمهج والأرواح ، ولعله يكفينا هنا أن ننقل مثلا ما رواه صاحب (الأغانى) من أن « عمرو بن هند : ملك الحيرة » قال يوما لجلسائه :

« هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمّه من خدمة أمّى ؟ »

فقالوا : « نعم .. أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » . قالوا : « لأن أباها مهلهل بن ربيعة ، وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم ابن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم ، سيد قومه وليث كتيبتهم »

فأرسل « عمرو بن هند » الى « عمرو بن كلثوم » يستزيره ، ويسأله أن تزور أمّه أمّه ، فأقبل « ابن كلثوم » من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت أمّه « ليلى » فى ظعن منهم .

وأمر « عمرو بن هند » برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، وأرسل الى وجوه أهل مملكته فحضروا ، ودخل « ابن كلثوم » رواق

---

(١) الاغانى ج ٣ ، ص ٣٨ ، طبعة دار الكتب ، والقصة مبسوطة فى « الروض الانف ٦، ٢/٨١٠ » وفيها : كان يقال : من قال ان حاتما أسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد

(٢) بغية الآمل من كتاب الكامل : ١/٢٥١

الملك ، وأ'دخلت « ليلى » الى « هند » فى قبة الى جانب الرواق ، وكان بين الاثنتين صلة نسب

قالوا : وقد كان عمرو بن هند أوصى أمَّه أن تنحى الخدم اذا دعا بالطرف ، وتستخدم « ليلى » ، فلما فعل قالت « هند » لزائرتها بعد أن اطمأن بها المجلس :

ــ ناولينى يا ليلى ذلك الطبق

فقالت « ليلى » فى نفور وأنفة :

ــ لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ..

فأعادت « هند » عليها وألحت ، واذ ذاك صاحت ليلى :

ــ وا ذِلاه يا لتَغلب !

فسمعها ابنها ، فثار الدم فى عروقه ، وانتفض قائلا : « لا ذلَّ لتغلب بعد اليوم ! »

ثم نظر حوله فاذا سيف معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فوثب اليه وأطاح به رأس « ابن هند »

والروايات تقول انه أنشد يومئذ معلقته المشهورة مرتجلا ، وفيها يصيح بالملك :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا ، نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حُمرا قد روينا
ألا لا يجهلَن أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا ، وأوعدنا ، رويدا ! ... متى كنا لأمِّك مقتوينا ؟
على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقسَّم أو تهونا
اذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا

وظلت « تغلب » تعظم قصيدة « عمرو » ويرويها صغارهم وكبارهم على تتابع الأجيال ، كما ظل مقتل « عمرو بن هند » مفخرة لهم يباهون بها ما عاشوا ..

قال الفرزدق :

* قومى هم قتلوا ابن هند عنوة *

وقال صريم التغلبى :

لعمرك ما عمرو بن هند وقد دعا
لتخدم « ليلى » أمَّه بموفق

فقام «ابن كلثوم» الى السيف مصلتا
فأمسك من ندمانه بالمخنّق

وجلّله «عمرو» على الرأس ضربةً
بذى شُطَب صافى الحديدة رونق

وقال « الأخطل التغلبى » لجرير يفخر بـ « عمرو ومرة : ابنى كلثوم » :

أبَنِي كليب ان عمّى اللذا   قتلا الملوك وفككا الأغلالا

الى ذاك المدى ، بلغت غيرتهم على الأمومة ، وما نمنع أن تكون حادثة « ليلى أم عمرو » من أقاصيص السمار واضافات الرواة ، لكنها لا تفقد — فى أى وضع رضيناه لها — دلالتها الاجتماعية على ما كان من عزة الأمومة فى الجاهليه

***

وقد شهد الإخباريون للأم العربية بالطموح ، ولم يجحدوا ما كان لها من نصيب فى عظمة بنيها ، فهم يذكرون ، فيما روى « القالى » (١) أن « أم الفضل بنت الحارث » كانت ترقص ولدها « عبد الله بن عباس » قائلة :

---

(١) الامالى : ١١٨/٢ ط بولاق

ثـكلت نفسي وثـكلت بـكري
ان لم يسُـد فهـرا وغير فهر
بالحسب العـدّ وبذل الوفر
حتى يُوارَى في ضريح القبر

وان « ضباعة بنت عامر » كانت ترقص ولدها « المغيرة بن سلمة » بقولها :

نَـمي به الى الذُرَى هشـامُ
قـومٌ وآباءٌ له كـرام
جحـاجح ، خضـارم ، عظـام
من آل مخزوم ، همُ الأعـلام
الهـامة العليـاء والسـنام

ويروون أن « صفية بنت عبد المطلب » كانت تضرب ولدها « الزبير بن العوام بن خويلد » وهو صغير ، وتغلظ عليه ، فعاتبها عمه نوفل بن خويلد في ذلك وقال لها فيما قال : أنت تبغضينه . فقالت صفية :

من قال اني أبغضـه فقـد كذب
وانمـا أضربه لـكي يلبّ
ويهـزم الجيش ويأتي بالسـلب
ولا يـكن لمـاله خَبْء مخب
يأكل ما في الطل من تمر وحب (١)

ويعترفون بأن « حاتما الطائي » انما ورث الجود عن أمه ، ويروي صاحب الأغاني (٢) انها كانت لا تُبقي على شيء ، فلما رأى اخوتها اتلافها أمسكوا عنها مالها ، حتى اذا ظنوا أنها وجدت ألمَ ذلك ، أعطوها طائفة من ابلها ، فجاءتها امرأة من « هوزان » تسألها ، على ما تعودت أن تفعل كل سنة ، فقالت لها : دونك هذه الابل فخذيها ، فوالله لقد عضّني الجوعُ فلن أضيع سائلا :

---

(١) نسب قريش : ٢٣٠ ذخائر
(٢) ٩٣/١٦ ط الساسي ـ وانظر كذلك عيون الاخبار لابن قتيبة : ٣٣٦/١ ط دار الكتب

لعمرك قِدماً عضَّنى الجوع عضة
فآليت ألا أمنع الدهرَ جائعا
فقولا لهذا اللائمى : اليومَ أعفنى
وان أنت لم تفعل ، فعَضِّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأختكم
سوى عذلكم أو عذل من كان مانعا ؟
وماذا ترون اليوم الا طبيعة
فكيف بتركى يا ابن أمٍّ الطبائعا !؟

***

كذلك أنصفها الذين كتبوا عن حياة العرب فى الجزيرة ، فنوهوا بذكر « المنجبات » من عقائل العرب ، مثل :

ـ فاطمة بنت الخرشب : أنجبت لزياد العبسى ، أبناءه الذين اشتهروا بلقب « الكمَلة » وهم : ربيع الكامل ، وقيس الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس

قيل انها سئلت يوما : « أى بنيك أفضل ؟ .. »

فبان عليها التردد ، وهى تقول فى حيرة : الربيع ، لا .. بل قيس ..

ثم هتفت : « ثكلتهم ان كنت أدرى أيهم أفضل ! هم كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفاها »

ـ وأم البنين ، بنت عامر بن عمرو ، زوج مالك بن جعفر . أنجبت له : مُلاعب الأسنة ، وطفيل الخيل (١) ، وربيع المقترين ، ونزّال الضيف ، ومعوذ الحكماء !

ـ وخبيئة بنت رياح الغنوية ، أنجبت ثلاثة كعشرة : خالدا ، ومالكا ، وربيعة

ـ وعاتكة بنت هلال السلمية ، أنجبت لعبد مناف بن قصى : هاشما ،

---

(١) هو القائل :
اذا نزل السحاب بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا
الروض الانف : ١٧٥/٢

وعبد شمس ، والمطلب

ـ وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، زوج العباس بن عبد المطلب . وفيها يقول الشاعر : (١)

ما ولدت نجيبـــــة من فحل
كســبعة من بطن أم الفضـــل

ـ وريحانة بنت معد يكرب الزبيدى ، أخت عمرو بن معد يكرب . كان « الصمة بن عبد الله الجشمى » سباها ثم تزوجهـــا فولدت له : دريدا وعبد الله ، وعبد يغوث ، وقيسا ، وخالدا

وإياها عنى أخوها « عمرو » بقوله :

أمن « ريحانة » الداعى السميع يؤرقنى وأصـــحابى هجـــوع
اذا لم تســتطع شــيئا فدعــه وجــاوزه الى ما تســتطيع

***

وليس ببعيد عن مظاهر مجد الأمومة وعزتها ، أن عددا غير قليل من قبائل العرب وبطونها ، نزع الى أمـّـه وآثر الانتساب اليهـــا ، كبنى « الخندف » ـ وهى ليلى بنت عمران القضاعية ، زوج الياس بن مضر ـ وعنها انشعب كثير من بطون العرب ، كهذيل ، وكنانة ، وأسد

وأم « الخندف » ، وهى « ضرية بنت ربيعة بن نزار » التى ينسب اليها « حِمى ضرية »

ومن القبائل التى انتسبت الى أمهاتها : بنو جديلة « بنت مدركة بن الياس » واليها تنتسب قبيلة عدوان

وكذلك بنو جندلة ، وبنو بجيلة ، وبنو العبدية ، ورقاش ، ومزينة ، وعاملة ، وعفراء ، وباهلة ، وسلول

والعبلات : رهط الثريا بنت عبد الله بن الحارث ، صاحبة عمر بن أبى ربيعة ، نسبوا الى أمهم عبلة بنت عبيد بن جاذب (٢)

---

(١) الروض الانف ٧٩/٢

(٢) أنظر فى هذا كله ، كتاب « جمهرة انساب العرب » لابن حزم ـ ط الذخائر

ومن الملوك من انتسبوا الى الأم ، كعمرو بن هنـــد ، والمناذرة بنى « ماء السماء » وهي ماوية بنت عوف بن جشم

وكثيرا ما كان الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم ..

قال « حـــذيفه بن غانم » أخو بنى عدى بن كعب بن لؤى ، يبكى « عبد المطلب بن هاشم » ويذكر فضل « قصى » على قريش : (١)

ولا تنس ما أسدى ابن « لُبنى » فانه
قد اسدى يدا محقوقة منك بالشكر
وأمك سر من خـــــزاعة جـــوهر
اذا حصـــّل الأنســـابَ يوما ذوو الخـــبر
الى ســـــبأ الأبطـــال تنمى وتنتمى
فأكرِمْ بهـــا منســـــوبةً فى ذُرا الزُّهر

وقال « بشر بن أبى خازم » يمدح « أوس بن حارثة بن لام » :

إلى أوس بن حـــــــارثة بن لام
ليقضى حـــــاجتى ، ولقـــــد قضـــاها
فما وطىء الحصا مثل ابن « سعدى »
ولا لبس النعـــــال ولا احتــــــذاها

ولأبيات بشر فى أوس ، قصة بالغة الدلالة على اعتراف القوم بمـــا للأم من أثر فى صنع أبنائها وتوجيههم . حدثوا أن قوما أغروا « بشر بن أبى خازم » بهجاء « أوس » ، فأخذ يتلقفه بلسانه حتى ضاق به فبعث من وراءه من جاءه به وخيَّره بين قطع لسانه وحبسه حتى يموت ، أو قطع يديه ورجليه وتخلية سبيله

ثم دخل « أوس » على أمّه « سعدى » فكرهت رأيه ، وأمـــرته أن يحسن عطـــاءه ففعل ، فملأ « بشر » عراض الآفاق بمـــدائحه فى ابن « سعدى » وأقسم لا يمدح أحدا غير « ابن سعدى » ماعاش (٢)

---

(١) السيرة ١/١٣٩

(٢) انظر القصة بالتفصيل فى كتاب الكامل للمبرد « بغية الآمل : ٣/٥٤) ــ وتاريخ ابن الاثير : ١/٢٢٩ ــ وديوان بشر ، ط دمشق ١٩٦٠

ولم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها فى جليل الأحداث ، من ذلك ما رواه « ابن هشام » فى « السيرة النبوية » (١) عن دور المرأة فى حلف المطيَّبين الذى كان بين بنى عبد مناف ومن انضموا اليهم فى خلافهم مع بنى عبد الدار بعد وفاة « قصى بن كلاب » ، فلقد أخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ، فوضعها بنو عبد مناف لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة فغمس القوم أيديهم فيها ثم مسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا .

وقيل إن التى أخرجت لهم الجفنة ، هى « أم حكيم البيضاء : بنت عبد المطلب » عمة المصطفى عليه الصلاة والسلام .

***

وغير مجهولٍ ماكان للعرب من حرص بالغ على الأنساب ، الى حد أن صار النسب عندهم علما يعنى به الحفّاظ وتؤلف فيه الكتب ، ويشتهر به نفر من الذين وعوا أنساب العرب ، كجبير بن مطعم بن عدى وقد قيل انه « من أنسب قريش لقريش وللعرب قاطبة » ومثل « أبى بكر الصديق » الذى « كان أنسب العرب »

لكنا حين يذكر النسب ، يتجه تفكيرنا غالبا الى الآباء والأجداد ، دون الأمهات والجدات ، مع أن نسابى العرب لم يغفلوا ذكرهن ، وتكفى المامة يسيرة عاجلة بأحد كتب الأنساب ، لكى ندرك مدى حرص النسابين على ذكر الأمهات ، والتنويه بكرم الخئولة .

ظل ذلك فيهم الى ما بعد الاسلام بقرون ، فيقول الشاعر « جرير » يمدح « هشام بن عبد الملك بن مروان » :

***

فما الأم التى ولدت قريشا ... بمقرفة النجار ولا عقيم
وما قرم بأنجب من أبيكم ... وما خال بأكرم من تميم

(١) جـ اول ص ١٣٩ حلبى

قال ابن هشام : « يعنى بالأم ، برة بنت مر ، أخت تميم بن مر ، أم النضر ــ والنضر هو قريش فى قول ، ويقال بل فهر بن مالك هو قريش »(١)

وما من قارىء يتتبع مساق (النسب الزكى) فى السيرة النبوية ، الا عَجِب لعنايتهم البالغه بذكر الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبعد

وانظر كتاب « نسب قريش للمصعب الزبيرى » وكتاب « جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسى » (٢) لترى الى أى حد عُنى النسابون بالأمهات

وما هكذا يكون الأمر مع ناس أهدروا المرأة فيهم ، إن فاتها الوأد ، وأنزلوها منزلة الهوان .

***

على أنا لا نريد أن ننفى كل الذى قيل عما لحق بالمرأة العربية من ظلم ، لأننا ان فعلنا نكن كهؤلاء الذين أنكروا ماظفرت به العقائل الكريمات من عزة ، وما وصلن اليه من مكانة

وأنَّى لأحد أن ينفى ماكان فى الجاهلية من محنة الوأد وكراهة الإناث ، ونحن نتلو الآيات المحكمات :

« واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قُتلت »

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء مايحكمون » (٣)

لكن ذلك لم يكن عاما بين العرب ، بل لعلنا اذا قسنا مابلغنا من أخبار تكريم السيدات وتقديرهن والاعتراف بمآثرهن ، الى ماروى عن مظاهر هوانهن ، لرجحت الأولى رجحانا ظاهرا ، وبخاصة اذا قدرنا ظروف البيئة العربية فى تلك الجاهلية القديمة ، قبل أن تسمع الدنيا عن نهضة المرأة وحقوق النساء بقرون وعصور

---

(١) السيرة ٩٦/١ ط الحلبى

(٢) نشرتهما دار المعارف فى سلسلة ذخائر العرب

(٣) عالجنا هذا الموضوع بمزيد بيان وتفصيل ، فى كتابنا « بنات النبى » فمن شاء فليرجع اليه . ط دار الهلال بالقاهرة .

أمهات الأنبياء

وأجل ما يذكر عن الأنوثة والأمومة ، فى كتاب « آمنة » أم النبى العربى ، هو ما فى تاريخنا الدينى عن أمهات الأنبياء :

اسماعيل ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، عليهم جميعا أزكى الصلاة والسلام

لقد يبدو من عجيب الاتفاق أنهم — عليهم السلام — قد عُهد بهم فى طفولتهم الى الأمهات وحدهن دون مشاركة الآباء ، فلم تقم الأم بدورها الطبيعى فقط ، بل عوضت الى جانبه فقد الأب أو غيابه ..

غير أنا نرى الأمر طبيعيا لا غرابة فيه ، اذ الامومة فى عاطفتها السخية وايثارها الباذل ، أقرب الى أن ترعى طفولة أصحاب الرسالات الدينية ..

وما كانت هذه الرسالات التى حملها أبناء صنعتهم أمهاتهم ، بالتى تؤخر مكان الأم أو تضعها فى غير موضعها الكريم :

« فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله »

أم إسماعيل

« ربنا انى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمـــرات لعلهم يشكرون »

(قرآن كريم)

(التوراة) تروى لنا قصة « هاجر أم اسماعيل » فى تفصيل مسهب ، و (القرآن) يشير اليها فى مواضع شتى مركزا على مواضع العبرة : لقد أراد الله أن يؤثر هذه الأم برعاية « اسماعيل » الوليد وانقاذه من الهلاك ، فتركه لها وحدها فى واد قفر غير ذى زرع ، كى تكون لهفتها على الصغير ، والألم الذى كابدته حين رأته يلهث من ظمأ ، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته ، حديث التاريخ وعبرة الدهر ، وصورة تخلد فيهـا الأمومة وتتقدس آلامها الى حيث تغدو عبادة ودينا !

ومَن « هاجر » ؟

أمَة مصرية ضعيفة لا حول لها ولا طول ، جاءت بها « السيدة سارة : امرأة ابراهيم» الى أرض كنعان ، بعد رحلتها المشهورة الى مصر فى صحبة زوجها ، عندما خرج من بلاده مهاجرا بدينه كافرا بقومه وبما يعبدون من دون الله

وكانت السيدة « سارة » عاقرا ، وقد طال عليها الأمد وهى عاجزة عن أن تعطى زوجها ولدا ، ثم .. بدا لها أن تهب زوجها تلك الجارية المصرية ، لعله يسكن الى احدى الراحتين !

وحملت « هاجر » فهاج ذلك فى سيدتها أقسى ما فى حواء من غيرة ، وخيّل اليها أن أمَتها صارت تنظر اليها نظرة فيها مباهاة ورثاء مذل ، فأقبلت على زوجها عاتبة شاكية تقول :

ـــ أنا دفعت اليك جاريتى ، فلما حملت ترفعت على !

فرد عليها ملاطفا :

ـــ هى جاريتك ، تصنعين بها ما تشائين ! (١)

لكن « سارة » لم تشأ أن تصنع شيئا قبل أن تبذل محاولتها الأخيرة فى احتمال الموقف ، حتى اذا وضعت « هاجر » وليدها ، نفد صبر السيدة وغلب احتمالَها ، فأقسمت ألا يؤويها وجاريتَها سقف

ثم ما زالت بزوجها حتى انطلق ذات يوم ميمما شطر الجنوب ، تتبعه « هاجر » وبين ذراعيها وليدها « اسماعيل »

واتهى بهم المسير عند « مكة » وهى حينذاك مقفرة خلاء ، لا يكاد يلم بها سوى نفر من الرحّل ، وقوم من العماليق كانوا يعيشون خارجها ويتنقلون من حين الى حين ، التماسا لماء أو انتجاعا لمرعى

وعند ربوة حمراء كانت قائمة هناك حيث بقايا البيت العتيق ، ترك ابراهيم « هاجر » وولدها ، وترك لها جراب تمر وسقاء ماء ، وأمرها أن تتخذ لها عريشا ، ثم همّ بالرجوع من حيث جاء .. فارتاعت « هاجر » من وحشة البرية ، وتضرعت الى سيدها « ابراهيم » ألا يدعها وولدهما فى ذاك القفر المرهوب ، لكنه أشاح بوجهه عنها لا يلتفت ولا يجيب ، كأنما كان يخشى أن تخونه عاطفته رحمة بابنه الوحيد ، الذى نبذه وأمّه بالعراء .

وأعادت « هاجر » سؤالها :

« أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه انس ولا شىء ؟ » (٢) وهو منصرف عنها منطلق فى سبيله لا يلوى على شىء ، حتى اذا كاد يتوارى خلف منعرج الوادى ، سمع صوتها الضارع يسأل فى لهفة :

ـــ آلله أمرك بهذا ؟

أجاب دون أن يلتفت :

ـــ أجل

---

(١) ، (٢) بنصه ، من التوراة

فقالت « هاجر » فى استسلام خاشع :

ـــ اذن فالله لا يضيعنا .. (١)

وأطرقت صامتة ، فلم تر « ابراهيم » وقد رفع وجهه الى السماء حين غيّبته ثنيّة الوادى ، وابتهل الى الله فى توسل :

« ربّنا انى أسكنتُ من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصـــلاة ، فاجعل أفئدةً من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربّنا إنك تعلم ما نُخفى وما نُعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولاْ فى السماء » (٢)

ثم استأنف مسيره عائدا الى زوجه « السيدة سارة »

وأقبلت « هاجر » على ولدها تستمد منه الأنس والعزاء ، وكادت تنسى به محنة الرق ومأساة الهجر ، وقد شغلت بالنظر الى وجهه اللطيف الحبيب، فلم تشعر أول الأمر بوحدتها الرهيبة فى البرية المقفرة ، ولم تدرك حق الادراك قسوة موقفها فى الوادى الأجرد ، بين الجبال الصخرية السود .

حتى نفدت مئونتها الضئيلة ، وبدأ الظمأ يناوش الصغير الغالى ، فهبت مذعورة تبحث له عن قطرة ماء ..

وحين أعياها أن تجد هذه القطرة ، بدا لها أن تصعد الى عل ، فنظرت أى الجبال أدنى من الأرض ، فاذا « الصفا » قريب منها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر : هل ترى أحدا ؟ وتسمعت : هل تؤنس صوتا ؟ فلما لم تجد الا الوحشة والصمت ، أتت « المروة » مهرولة تسعى سعى المجهد ، وصعّدت علّها ترى أثرا من حياة ، ولا أثر !

وظلت هكذا تسعى مهرولة بين « الصفا » و « المروة » شوطا بعد شوط ، حتى نال منها التعب والاعياء .. فتهاوت على الرمال الى جانب ولدها تنتظر المصير الفاجع مستسلمة ، شبه يائسة ..

---

(١) الحوار بنصه من التوراة

(٢) سورة ابراهيم ، آيتا ٣٧ ، ٣٨

لكنها لم تلبث فى مكانها طويلا ، فلقد كان لهاث ولدها الظامىء يمزق قلبها ويفرى كبدها ، وكان مشهده والحياة تتسرب منه وتنطفىء رويدا رويدا ، أقسى من أن تحتمله أمومتها ، فجمعت كل مابقى لها من قوة ، وزحفت بعيدا عن ولدها المحتضر ، ثم غطت وجهها بلفاعها وهى تقول :
ــ لا أنظر موت الولد ..

وأمسك الكون أنفاسه ، ولم يبق من صوت سوى لهاث المحتضر وأنين أمه التعسة ، يتردد صداهما فى البلقع القفر ، مختلطا بعواء وحوش الفلاة، وسُعار السباع الجائعة المحومة على المكان .. كأنها ترقب الخفقة الأخيرة فى فريستها المنتظرة ..

ثم كانت النجاة ..

حوم طائر على المكان ثم حط على بقعة هناك ، فظل ينقر فيها بمنقاره حتى انبثق ماء «زمزم» فهرعت «هاجر» نحوها وهى تحس موجة دافقة من القوة والحيوية فى كيانها ، وأقبلت ترتوى ، وتسقى ولدها ..

ودبت الحياة فى الوادى الأجرد ..

« مرت رفقة من جرهم مقبلة من طريق كداء ، تريد الشام ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طيرا فقالوا : ان هذا الطير لحائم على ماء ! لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ..

« وأرسلوا دليلهم ، فعاد يحدثهم عما رأى ، وتبعوه حتى أشرف بهم على الماء ، فاذا هناك هاجر وولدها . فقالوا لها : ان شئت كنا معك فآنسناك ، والماء ماؤك ..

« فأذنت لهم فنزلوا معها ، وهم أول سكان مكة »

***

وخلدت « هاجر » الأمة المنبوذة ، صورة مؤثرة مثيرة للأمومة فى حنوها وآلامها وهمومها ...

وعاش ولدها اسماعيل ــ ذاك الذى رعته وحدها حين تركه أبوه فى

ابلقع القفر ــ ليلتقي مع أبيه ابراهيم ، عهد الله سبحانه :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ قال ابراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن بالله واليوم الآخر ، قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم » (١)

---

(١) سورة البقرة آيات ١٢٥ : ١٢٩

أم موسى

« .. وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »

(قرآن كريم)

لا يذكر « القرآن الكريم » شيئا عن والد « موسى » ، وانما يخص بالذكر أمه ، ويتكل اليها أمر حمايته وليدا ورضيعا ، حين ضاق فرعون ببنى اسرائيل وأنكر خبث أفاعيلهم وضراوة شرهم ، فأذلهم واستعبدهم وراح يسومهم سوء العذاب ..

وتقول الرواية انه رأى فى منامه رؤيا أفزعته « فدعا الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين ، فسألهم تأويل رؤياه فقالوا : يولد فى بنى اسرائيل غلام يسلبك الملك ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك وقومك على أرضك ، ويبدل دينك . وقد أظلك زمانه الذى يولد فيه » (١)

وكفر غضبه ونفد صبره ، فأمر بقتل كل غلام يولد فى بنى اسرائيل

وولد « موسى » حينذاك خفية ، فارتجفت أمه رعبا وجزعا ، وأشفقت عليها القابلة فوعدتها أن تكتم الأمر . ويضيف بعض الرواة أن القابلة لم تكد تنظر الى الوليد حتى اهتز قلبها رحمة له وتعلقا به ، وأبى عليها أن تسلمه الى الذبح ..

غير أنها ماكادت تنصرف من عند أم موسى حتى أبصرتها عيون فرعون التى بثها فى كل مكان ، فاندفعوا يقتحمون الدار وكادوا يظفرون

---

(١) راجع قصص الانبياء للثعلبى « العرائس » . ص ١٧٣ و ١٧٤ ط السعيدية

بالوليد لولا أن لمحتهم أخته « مريم » فهمست جازعة :

ـ أماه ، هذا الحرس بالباب !

وفى ذهول المفاجأة ، ألهم الله أم موسى فلفّت ولدها فى خرقة وألقته فى جوف التنور ، دون أن تشعر بما تفعل ، فلم تكد تودعه هناك حتى دخل الحرس ، فلم يجدوا سوى الأم بادية السكينة والاطمئنان ، والى جانبها فتاتها تعنى بشؤون الدار فى جد وهدوء ..

وسألها الحراس فى فظاظة :

ـ ما أدخل عليك هذه القابلة ؟

أجابت من غير أن تزايلها سكينتها :

ـ هى مصافية لى ، دخلت علىّ زائرة ..

فانصرفوا ، ودارت عينا الأم تبحثان عن ولدها ، فاذا صوته ينبعث من التنور ، فهرعت اليه وأخرجته لم يمسه أذى بفضل الله

***

وبدا جليا أن اخفاء الصغير غير مستطاع الا الى حين ، وأطرقت الأم مهمومة تفكر ، فأوحى الله اليها : « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ، فليُلقه اليم بالساحل يأخذه عدوٌ لى وعدو له » (١)

واستجابت الأم لوحى الله ، فاتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا ثم أرضعت وليدها وأرقدته فى التابوت وأحكمت عليه الغطاء ، وألقت به فى النيل ..

كيف كان شعورها اذ ذاك وهى تسلم فلذة كبدها بيدها الى النهر ؟ أغفل أكثر الذين تعرضوا للقصة ، تصوير موقفها ذاك على شط النيل ، وقد تعلقت عيناها بالتابوت الذى يضم الصغير الحبيب ، اذ تتقاذفه الأمواج وتمضى به بعيدا ..

على أن منهم من أدرك الموقف المؤثر ، حين غاب التابوت عن بصرها ، وروعها الفراغ من حولها .. فتنبهت فجأة الى أنها ألقت ولدها بيدها فى

(١) من آية ٣٩ سورة طه

اليم ، لم تفكر الا فى نجاته من جند فرعون ، حتى أدركت بعد فوات الأوان ، أنها خلَّصت وليدها من الذبح : لتلقى به الى أفواه الحيتان !

قال « الثعلبى » :

« فلما ألقته فى النيل وتوارى عنهـا ، أتاها الشيطان فوسوس اليها ، فقالت فى نفسها : ماذا صنعت بابنى ؟ لو ذبح لواريته وكفَّنته ، وكان أحب الى من أن ألقيه بيدى فى البحر وأدخله الى دواب البحر » (١)

وتلك اضافة أحسبها من « الاسرائيليات » التى روجها فى المسلمين من أسلموا من اليهود . والقرآن الكريم لايشير الى هذه الوسوسة الشيطانية من قريب أو بعيد ، بل لعله أقرب الى أن يرفضها وينفيها ، بالنص الصريح على أن قذف الأم لولدها فى اليم ، كان بوحى من الله

ولنا مع ذلك أن نتمثلها وقد لبثت فى مكانها على الشاطىء لاتكاد تقوى على مغادرته ، وقلبها يعدو فى أثر ذاك الذى مضى .. حتى افتقدتها ابنتها فجاءت تلتمسها هناك ، وقادتها فى رفق عائدة بها الى الدار ، حيث مضت الأم المحزونة تطوف بأنحائها ، وتنادى الغائب العزيز ..

وأنزل الله سكينته عليها ، فأمسكت عبرتها وكتمت لوعتها ، وانطوت على نفسها صابرة داعية ، خاشعة مستسلمة لأمر الله

***

ومضت الأمواج « بموسى » حتى انتهت به ــ فيما يروى الخبر ــ الى روضة عند قصر « فرعون » كانت مستقى لجواريه ، فما لمحن التابوت حتى التقطنه وانطلقن به الى سيدتهن « آسـية : امرأة فرعون » وفى حسابهن أن به كنزا من مال وجواهر ..

ثم فتح الصندوق ، فاذا الصغير يرفع الى « آسية » وجهـا مشرقا بابتسامة حلوة !

---

(١) من قصص الانبياء : ١٧٤

وأقبلت عليه تملأ عينيها منه وقد أحست قلبها ينفتح له ، كأنما هو قطعة منها ..

ولم يكن لها ولد ، فما أجملها هدية تقدمها السماء الى أمومتها المحرومة !

فى هذا كانت تفكر ، حين أقبل حرس فرعون على جناحها ، يطلبون الصبى وقد سمعوا به .

قالت آمرة :

ــ انصرفوا ، فان هذا لايزيد فى بنى اسرائيل ..

ثم لما رأت ترددهم ، خففت من صرامتها وقالت :

ــ دعوا أمره لى ، فأنا آتى فرعون وأستوهبه اياه ، فان فعل كنتم قد أحسنتم ، وان أمركم بذبحه فلن ألومكم ..

وجاءت « فرعون » فتوسلت اليه قائلة :

« قرة عين لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » (١)

فكان جوابه :

ــ قرة عين لك ، أما أنا فلا حاجة لى فيه ..

ثم استدرك بعد لحظة :

ــ لا بل فليذبح ، فانى أخاف أن يكون هذا من بنى اسرائيل ، وأن يكون هو الذى هلاكنا وزوال ملكنا على يده ..

فلم تزل « آسية » تكلمه وترجوه ، حتى وهبه لها ، وعادت به الى جناحها من قصر فرعون ، والدنيا لاتسعها من فرط فرحتها ..

***

وهنالك فى حى بنى اسرائيل ، كانت « أم موسى » مشغولة البال لاتدرى مصير وليدها الرضيع .

قالت لأخته :

ــ « قصيه » وتتبعى أثره ، هل تسمعين له ذكرا ؟ أحى هو أم قد أهلكته دواب البحر ؟

---

(١) من آية ٩ سورة القصص

فخرجت الأخت تلتمس أثر أخيها ، وسارت بحذاء النهر حتى حملتها قدماها الى قريب من قصر فرعون ، لتسمع هناك أن ربة القصر تبنت غلاما رضيعا ، يأبى المراضع !

وحدثها قلبها أنه هو ، فظلت تحوم حول القصر فى حذر ولهفة وترقب ، حتى رأت جوارى امرأة فرعون يخرجن فى التماس المراضع ، لعله يقبل ثدى إحداهن ..

هنالك لاذت أخته بكل مافى طاقتها من شجاعة كى تدارى عواطفها وتكتم لهفتها ، وتقدمت الى القصر فى حذر ، ثم قالت لبعض من هناك ، فى صوت حاولت ألا ينم عن شىء مما كان يخالجها :

ــ « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون » (١)

فراب القوم ماسمعوا ، وأحاطوا بها يسألونها :

ــ مانراك الا تخفين أمرا !

فأجابت فى ثبات :

ــ بل أردت أن أنصح لكم ..

قالوا :

ــ لعلك تعرفين أهله ، والا فما يدريك أنهم له ناصحون ؟..

فهزت رأسها قائلة :

ــ الأمر أبسط مما تظنون ! كل ماهناك انى أعرف فيهم الرحمة وطيب القلب ، وما أشك فى أنهم يرحبون بحضانة الصغير شفقة عليه ، وتقربا الى الملك ، والتماسا لبره !

وتبعوها الى حيث كانت « أم موسى » تجتر همومها فى وحدتها ، خالية الذهن من أسعد مفاجأة تخطر على قلب أم !

ولمحته ، فأمسكت صيحة فرح كادت تنطلق من أعماق قلبها المشوق فتنم عليها ، وأقبلت على الرضيع متجلدة متماسكة ، فضمته الى صدرها فى رفق ، وألقمته ثديها ..

---

(١) من آية ١٢ سورة القصص

فما كان أشد عجب القوم الذين عرفوا اباء «موسى» للمراضع جميعا ، اذ رأوه يلقف الثدى فى لهفة الظامىء يجد ريًّا !

ورضع حتى ارتوى ، وعاد رسل امرأة فرعون اليها يصحبون «موسى» وأمه ، ويقصون عليها ما رأوا من أمرهما ..

قالت فى غبطة :

ـ هلا مكثتِ عندى ياظئر لترضعى ابنى هذا الحبيب ؟

فأجابت الأم :

ـ بل ان شئت ياسيدتى صحبتُه معى الى بيتى أرضعه وأرعاه ، فانى أخشى ان أنا هجرت بيتى وولدى ، ضاعوا .. ولست بتاركتهم أبدا ..

وقد يبدو عجيبا من « أم موسى » أن تقف هذا الموقف ، فتأبى أن تقيم فى القصر ظئرا لولدها .. لكن لا عجب ، فلقد أدركت الأم انها سيدة الموقف مادام الوليد قد أبى أن يرضع الا من ثديها ، وانها لتعرف تعلق « امرأة فرعون » بالصغير ، فلماذا لا تصر على أن تعود به الى دارها كى تروى به أشواق أمومتها فى اطمئنان ، بعيدا عن جو القصر وعيونه وأرصاده ؟

لماذا لاتنجو به من رقباء قد يريبهم حنوها الغامر على الصغير ؟

لو أنها أقامت بالقصر ، فهى بين أمرين أحلاهما مر :

اما أن تكبت عاطفتها الظمأى وتكبت أشواق أمومتها ، كى لايستريب القوم فى أمرها ، وذلك مالا طاقة لأمومتها به بعد الذى كان ...

واما أن تترك نفسها على سجيتها ، فتدفع ولدها بيدها الى المذبحة !

ثم انها قد رأت من رحمة ربها بها وبولدها ، مايغريها بأن تختار له ولنفسها المكان المطمئن فى دارها ، وفى ذلك يقول « الثعلبى » :

« وتذكرت أم موسى ما كان الله وعدها ، فتعاسرت على امرأة فرعون ، وأيقنت ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده »

ولم تجد « امرأة فرعون » مفرا من اجابة الظئر الى طلبها ، حرصا على حياة الرضيع ، فأذنت لها فرجعت به الى بيتها ..

فذلك قوله تعالى فى سورة القصص :

« وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه ، فاذا خفت عليه فألقيه فى اليمّ ولا تخافى ولا تحزنى انا رادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّا وحَزَنا ، ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عينٍ لى ولك ، لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ، إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصّيه ، فبصُرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلّكم على أهل بيتٍ يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه الى أمّه كى تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون . ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكما وعلما ، وكذلك نجزى المحسنين » (١)

وقوله تعالى فى سورة طه :

« قال قد أوتيت سؤلك ياموسى . ولقد مننّا عليك مرة أخرى . اذ أوحينا الى أمّك مايوحَى . أن أقذفيه فى التّابوت فاقذفيه فى اليم فليُلقِه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيتُ عليك محبةً منى ولتُصنعَ على عينى . إذ تمشى أختُك فتقول هل أدلّكم على من يكفله ، فرجعناك الى أمّك كى تقرّ عينها ولا تحزن » (٢)

هكذا نزل الوحى على « أم موسى » بالمهمة الجليلة : مهمة انقاذ الوليد الموعود بالنبوة ...

---

(١) سورة القصص ، آيات ٧ : ١٤

(٢) سورة طه ، آيات ٣٧ . ٤٠

أم المسيح

« اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والاخرة ومن المقربين »

(قرآن كريم)

وعيسى عليه السلام ...

انه « عيسى بن مريم » كما دعاه كتاب الاسلام ..

ومن حق الأمهات أن يفخرن بنسبة نبى المسيحية الى أمه التى طهرها الله واصطفاها على نساء العالمين ..

وقصة أمومة « مريم » بالغة الاثارة ، فلقد تعرضت ــ عليها السلام ــ لأقسى ماتتعرض له أنثى : نشأت فى بيت دين وتقى ، لأب عالم شيخ من كبار بنى اسرائيل ، فلما حملت بها أمها نذرت لله أن تهب مافى بطنها لخدمة الهيكل : « اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن ، وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا » (١)

ذلك أن أباها « عمران » مات وهى صغيرة ، فاختلف القوم فيمن يكفلها من آلها ، وألقوا على ذلك قرعة فكفلها « زكريا » زوج خالتها ..

---

(١) سورة آل عمران ــ آيات ٣٥ : ٣٧

« ذلك من أنبـاء الغيب نوحيه اليكَ ، وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيّهم يكفّل مريمَ وما كنت لديهم اذ يختصمون » (١)

وأمضت مريم صباها فى المحراب عابدة خادمة ، وفاء بنذر أمها ، حتى اذا اختارها الله من دون النساء جميعا ليودعها سره الأكبر ، بعث اليها فى خلوتها من بشّرها « بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » (٢)

فما كادت تسمع البشرى حتى أخذ الروع منها أعنف مأخذ ، ثم رفعت وجهها الى السماء ضارعة :

« قالت أنّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر" ولم أكُ بغيا . قال كذلك قال ربّك هو علىّ هين" ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا » (٣)

واستسلمت لأمر الله المقضى وقدره المحتوم ، حتى أحست الجنين يتقلب فى أحشائها ، ويا له من احساس رهيب تعانيه عذراء طاهرة نقية السمعة ! هنالك أشفقت من الفضيحة والعار ، فانتبذت بحملها مكانا قصـيا ، وأقامت فى وادٍ للرعاة هجره رعاته بمواشيهم التماسا للكلأ ، فلما جاءها المخاض ألجأها الى جـذع نخلة هناك ، ووضعت وليـدها فى مِذودٍ للماشية ، وقالت :

« يا ليتنى متُّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا » (٤)

ثم كان مالا بد أن يكون ..

مضت « فأتت به قومها تحمله ، قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريّا . يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوء وما كانت أمّك بغيا » (٥)

ولم يشفع لها ما عرف القوم من عفتها وطهرها ، ولا أنقذها من لعنتهم

---

(١) سورة آل عمران : آية ٤٤
(٢) سورة آل عمران : آية ٤٥
(٣) سورة مريم : ٢٠ ، ٢١ وانظر معها آية ٤٧ من آل عمران
(٤) سورة مريم : آية ٢٣
(٥) سورة مريم : آيتا ٢٧ ، ٢٨

مابدا من ولدها الصغير من آيات بيّنات ، بل رمَوها بالافك وقالوا عليها « بهتانا عظيما » ، فتلقت اللعنة صابرة ، وكابدت المحنة متجلدة لقضاء الله فيها ، راضية بما هو أقسى من الموت فى سبيل ولدها الموعود بالمجد العظيم ..

ويصف « الانجيل » ماعانت « مريم » من ذلك وصفا مؤثرا ، ثم يحدثنا عن فرارها بابنها الى مصر لكى تنجو به من الكيد والأذى ، حيث أقامت هناك اثنى عشر عاما ، ترعاه وتكدح لتهييء له أسباب العيش ووسائل التعليم ..

ولم يجحد الكتّاب المسلمون ذلك الكفاح الصابر ، بل كتب « الثعلبى » : « فأقامت مريم بمصر اثنتى عشرة سنة ، تغزل الكتان ، وتلتقط السنبل فى أثر الحصادين ، وكانت تفعل ذلك والمهد فى منكبها ، والوعاء الذى فيه السنبل فى منكبها الآخر » (١)

كما يتحدثون عن عنايتها بتعليمه ، ويصفون كيف أخذته صغيرا « وجاءت به الى الكتاب وأقعدته بين يدى المؤدب حتى أذن الرب لها ، فعادت به الى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة فى كتاب موسى » (٢)

وسكنا فى قرية « الناصرة » حيث عاشت له الى أن بلغ مبلغ الرجال ، وكانت هى التى لاذ بها عندما تجلّت له الرؤيا ، وكاشفها بهمومه الكبار ، وتزود منها بالتأييد والتشجيع ..

وقد سجل لها (انجيل برنابا) ذلك الموقف الخالد ، فذكر فى الفصل العاشر أنه لما بلغ « يسوع » ثلاثين سنة من العمر ، صعد الى جبل الزيتون مع أمه ليجنى زيتونا ، وهنالك تجلت له الرؤيا وعلم أنه نبى مرسل الى بنى اسرائيل فكاشف مريم أمه بكل ذلك قائلا لها : انه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله ، وانه ـ أى عيسى ـ لايقدر فيما بعد أن يقيم معها ويؤدى ماعليه من دين لها بخدمتها ..

---

(١) ، (٢) العرائس للثعلبى : ٢ ، ٤

« فلما سمعت مريم هذا أجابت : يابنى ، انى نبئت بكل ذلك قبل أن نولد ، فليتمجد اسم الله القدوس . ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته الدينية » (١)

بعد أن صحبته مدى ثلاثين عاما ، هيأته خلالها للدور العظيم الذى ينتظره ..

انصرف عنها ، ولكنهما خلدا معا على الأيام ، آية من آيات الله ..

« وجعلنا ابن مريم وأمه آية »

« وجعلناها وابنها آية للعالمين »

***

وتأتى « آمنة بنت وهب » فى ختام هذا الموكب الرائع لأمهات الأنبياء ، لتكون أم الرسول اليتيم : خاتم الرسل ، والمبعوث بآخر رسالات الدين ...

---

(١) انجيل برنابا : الاصحاح العاشر

الفصل الثانى

بيئة .. ووراثة

- البيت العتيق ..

- بنو زهرة ..

البيت العتيق

« ... واذ بوانا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود . واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق . »

(قرآن كريم)

لبيك اللهم لبيك !...

هو الهتاف الخالد ، رددت صداه الآفاقُ المكية منذ ما لا يحصى من السنين ، فاذا الملايين تنثال الى « البيت العتيق » من كل فج ، ملبية أذان « الخليل » فى النـــاس بالحج ، ومستجيبة من بعده لدعاء النبى العربى اليتيم ، الذى وضعته « آمنة بنت وهب » فى دار « عبد الله بن عبدالمطلب ابن هاشم » ، منذ أربعة عشر قرنا ، ونحو نصفِ قرن ..

يا أُذُنَ الزمان الواعية ..

و ياعينَ الدهرِ الباصرة ..

أى ألسنةٍ للعابدين سمعتِ ؟

وأى وجوهٍ هنالك رأيتِ ؟

وأى ألوان من البشر شهدتِ ؟

أى ألوية خفقت وأى هامات انثنت ، فى هذه البقعة من الأرض ، وسط الوادى الأجرد الذى تحف به الصخور السودُ والجبال الشمّ ،

منذ جُعِل « البيت » هنالك مثابةً للناس وأمنا ، وحرما وملاذا ، يطمئن فيه الخائف ، ويأمن لديه المروَّع ، ويحقن عنده الدمُ المهدر ، وتحمَى في حماه حياةٌ كانت اذ ذاك مستباحة في شِرعة الصحراء وبضراوة البيداء ؟!

« ان أول بيت وضع للناس ، للَّذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » (١)

***

يا ذاكرة الزمان الحافظة !

عرفتِ في الدنيا بيوتا وبيوتا ..

ورأيت معابد وصروحا ، في شرق الأرض ومغربها ، وقديمها والحديث

وشهدت حجاجا وزوارا ، وطائفين وعبَّادا ..

وهذا البيت العتيق بينها كان — وسيظل — عَلَمًا شامخا ومنارا عاليا ، ترامت أضواؤه وأصداؤه الى أبعد مما ترامى اليه تأثير بيتٍ سواه أو مزار !

ومن يدرى يا دهر ، كم من آلاف السنين قد أسقطت أصابعك الباطشة أوراقها من تقويم الزمن ، منذ كانت تلك البقعة الضيقة المحصورة من أرض الحجاز ، مأوى يسير الشأن ، ومحطا هين الأمر ، يريح فيه المسافرون من طلاب الرزق قوافلهم ، في طريقهم بين الشمال والجنوب ذهابا وجيئة ، قبل أن يستأنفوا مسيرهم الشاق في قلب الفلاة ؟!

من يدرى يا ذاكرة التاريخ ، كم من أجيال البشر مرت بك ، قبل أن يجد أولئك الضاربون في الصحراء عبر الوادى القفر المرهوب والفيافى المهجورة الموحشة ، موئلا في جوار «مكة» يتريثون عنده التماسا للحماية والعون ، وتزودا بشىء من الطمأنينة يعينهم على مسعاهم المضنى ومسراهم المخوف ، عبر الفيافى والقفار ؟

---

(١) سورة آل عمران : ٩٦

منذ كم من الدهور والأحقاب ، كانت تلك البقعة من الصحراء المترامية الأطراف ، مباءة عبادة ، يرى الناس بينها وبين السماء صلة مباشرة ، فهم ينثالون اليها حجاجا ضارعين ، ويلوذون بها داعين مبتهلين ، قد هانت لديهم الأرض الا موضعا ، وعزّ الأمان الا فى مكان ؟!

كيف نَمَتْ «مكةُ» معك يازمن ، من محطة صغيرة للقوافل ، الى مركز تجارى هام ، تتلاقى فيه القوافل من شمال وجنوب ، وتتواصل حضارتا الشرق والغرب ، حين كانت الابل وحدها عُدة السير ووسيلة الاتصال ؟

وكيف شاركت هذه البقعة فى ذلك التواصل ، عندما ضجت الدنيـا حولها بالحركة وزخرت بالحيـاة ، فجاءت من الشرق بما فى فارس ، والهند والصين . ومن الجنوب بما عند اليمن والأحباش ، ومن المغرب بما عند مصر ووادى النيل ، ودفعت ذلك كله الى هنـاك ، عن طريق البحرين : الأحمر والأبيض ؟!

***

ليس غيرك يازمن ، من يستطيع أن يصف لنا بالتفصـيل العـوامل الاقتصـادية والاجتماعية التى جعلت المعنى الدينى لهذه البقعة من قلب الفلاة ، يتضخم ويتركز ويتجسم ، حتى صار مثابة العرب ومطافأحلامهم وتطلعهم الى الاستقرار الاجتماعى والعدالة المرجوة فى حياة آمن وأسعد وأهنأ من تلك التى فرضتها عليهم البادية الضارية ..

ان تاريخ العرب المكتوب ، يقـدم لنا من ذلك كله حديثـا عجبا يملأ مجلدات وأسـفارا ، أنزلها القوم منذ كانت ، منزلة عليا من الثقة فيها والاطمئنان اليها . ومانزال تتخذ منها مراجعنا ومصادرنا فى معرفة ماضى الجزيرة قبل الاسلام ، اذ لانملك ـ الى اليوم ـ مصـادر تاريخية عن ذاك العهـد الموغل فى القدم ، الا ماتركته لنا الرواية النقلية ، وعليهـا معتَمدنا فى معرفة الملامح العامة للتطورات التى يمكن أن تؤخـذ من

القضايا الاجتماعية الكبرى ..

أما التفاصيل الدقيقة فسوف تظل وديعة الدهر ، الى أن تصير هذه المنطقة موضع دراسة جيولوجية ، تمدنا بآثار علمية نقيم عليها الدرس التاريخى

***

منذ متى بدأ التاريخ الدينى لمكة ؟ ..

يمضى به بعض كتاب السيرة ومؤرخى « مكة » الى عهد « شيث بن آدم » ، على أن تلك المرحلة الأولى من تاريخها البعيد غابت عنا ، فلانكاد نعرف الا أنها كانت محطة متواضعة للقوافل ، وسوقا متوسطة للتبادل التجارى بين الشمال والجنوب من غرب الجزيرة ، كما نقرأ أنها كانت فى ذلك العهد السحيق موئلا للعبادة ، وهو أمر لم يكن منه بد ، تأمينا للراحلين والتجار ..

ثم تطورت العبادة فى ظروف مجهولة الى وثنية أنكرها « ابراهيم » فبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مكة ، أجلى وأوضح ، وأوفى أخبارا ..

وقد تحدثت الكتب السماوية عن رسالة « ابراهيم » فى تفصيل وبيان ، فقصت علينا التوراة قصة مجىء ابراهيم الى « مكة » وتركه ابنه « اسماعيل » وأمه « هاجر » هناك ، حيث أوشكا على الهلاك ظمأ لولا أن انبثق ماء زمزم فأمسك عليهما الحياة ، يجذب القوافل فى أعقاب الرعاة ..

ووصف لنا القرآن الكريم موقف « ابراهيم » فى تلك البرية المقفرة ، يدعو الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوى الى ذريته التى أسكنها بواد غير ذى زرع عند البيت المحرم ، كما حدثنا عن الرسالة الدينية الجديدة التى عهد بها الله سبحانه ، الى ابراهيم وولده اسماعيل .

كما يذكر لنا كتابنا الكريم ، مبلغ ماوصل اليه المركز الدينى والاقتصادى لمكة :

« أوَ لم نُمكِّن لهم حرما آمنا يُجبَى اليه ثمراتُ كل شىء ، رزقا

من لَدُنّا ولكن أكثرهم لايعلمون » (١)

***

من ذلك العهد السحيق ، يرتفع الدعاء الخالد :

« لبيك اللهم لبيك ! »

فتتجاوب به أودية مكة وبطاحها ، وتخشع له الجبال الصخرية الشمّ التى تحيط بها ، وتعنو له هامات البدو الصلاب : أبناء البادية وسادة الصحراء ...

ومن ثم يمضى مؤرخونا القدامى ورواتنا الأوَل فيملأون المجلدات والأسفار بالحديث عن حرمة ذلك « البيت العتيق» كيف عظمت وجلّت ، وعن « مكة » فى عهدها الجديد كيف تسامت الى المنزلة الرفيعة التى بقيت لها على مر الحقب وتتابع الأجيال ..

حدثوا أن « جرهما » ــ وهم خئولة ولد اسماعيل ــ تولوا أمر البيت وملأوا فجاج مكة ، حتى ضاقت على أصحابها الأولين من « بنى اسماعيل » فتركوها دون أن ينازعوا « جرهما » فى ولايتهم ، رعاية لقرابتهم ، واعظاما لحرمة « مكة » أن يكون بها بغى أو قتال . فلما خلا الجو لجرهم ، بغوا وظلموا وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدَى لها . ويقول ابن اسحاق : « وكانت مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد الا أخرجته ، ولا يريدها ملِكٌ يستحل حرمتها الا هلك مكانَه ، فيقال انها ما سُمّيت ببَكّةَ الا لأنها كانت تبك ــ أى تكسر ــ أعناق الجبابرة اذا أحدثوا فيها شيئا » (٢)

وهكذا أُخرج جبابرة « جرهم » من مكة أذلةً صاغرين ، يرثيهم شاعرهم فيقول : (٣)

وقائلةٍ والدمع سكبٌ مبادرُ
وقد شرقتْ بالدمع منها المحاجرُ

(١) من آية ٥٧ : سورة القصص
(٢) السيرة لابن هشام ج أول ، وانظر نهاية الارب للنويرى : ٢٣/١٦ ط دار الكتب
(٣) السيرة ١٢٠/١ ، ونهاية الارب : ٢٤/١٦

كأنْ لم يكن بين «الحَجون» الى «الصَفا»
أنيسٌ ، ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلبُ منى كأنما
يلجلجه بين الجناحين طائرُ
بلى نحن كنا أهلَها فأزالنا
صروفُ الليالى والجدودُ العواثر
وكنا ولاةَ « البيت » من بعد « نابتٍ »
نطوف بذاك « البيتِ » والخيرُ ظاهر
فأخرجنا منها المليكُ بقدرةٍ
كذلك ــ يا للناس ! ــ تجرى المقادر
فسحَّت دموعُ العينِ تبكى لبلدةٍ
بها حرمٌ أمنٌ ، وفيها المشاعر

ورووا أن « تبَّعا الحيرى » مر بقرب « مكة » فى طريقه الى اليمن ، فأتاه نفرٌ من هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر ، فقالوا له :

ــ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ ، والزبرجد ، والياقوت ، والذهب ، والفضة ؟ ..

قال :

ــ بلى ! ..

قالوا :

ــ بيتٌ بمكة يعبده أهله ، ويُصلون عنده ..

وكان الهذليون انما أرادوا هلاك « تبَّع » بذلك ، لِمَا عرفوا من هلاك مَن أراد « البيت » من الملوك بسوء . ويقول « السهيلى » (١) : «وروى نقلة الأخبار أن « تبعا » لما عمد الى البيت يريد اخرابه ، رُمِى بداء تمخض منه رأسه قيحا وصديدا .. وأنتن حتى لايستطيع أحد ان يدنو منه قيدَ الرمح . وقيل : بل أرسِلتْ عليه ريحٌ كنعت منه ــ أى أيبست ــ

(١) الروض الانف : ١/٢٧ ط الجمالية

يديه ورجليه ، وأصابتهم ظلمة شديدة .. فدعا بالحزاة والأطباء فسألهم عن دائه ، فهالهم مارأوا منه ولم يجد عندهم فرجا »

حتى جاءه حبران من اليهود ، فقالا : لعلك هممت بشيء فى أمر هذا البيت ؟

فقال : « نعم .. أردتُ هدمَه » وذكر لهما ماقال الهذليون ..

فصاح الحبران :

« ما أراد القومُ الا هلاكَك وهلاكَ جُندك . ما نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيرَه ، ولئن فعلت مادعوك اليه لتَهلكن وليَهلكن من معك جميعا »

ثم نصحا له اذا هو أقدم على « البيت » أن يصنع عنده ما يصنع أهله : يطوف به ، ويعظمه ويكرمه ، ويحلق رأسه عنده ، ويذل له حتى يخرج ..

قالوا : فعرف نصحهما وصدّق حديثهما ، فقرب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم .. ثم مضى فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه . وأقام بمكة ــ فيما يذكرون ــ ستة أيام ، ينحر بها للناس ، ويسقيهم العسل ، ثم كسا البيت أحسن الكساء ، وجعل له بابا ومفتاحا ..

فيقال انه برىء من دائه وصح من وجَعه .

ويعلق « السهيلى » على ذلك قائلا :

وأخلق بهذا الخبر أن يكون صحيحا ، فان الله سبحانه وتعالى يقول : « ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم » (١)

ثم يروى لـ « تبع » شعرا ، يقول فيه :

وكسونا البيت الذى حـــرّم الله ملاءً منضـــدا وبـــرودا

ونحـــرنا بالشـــعب ســـتة ألف فتـــرى النـــاسَ نحـوهن وُرودا

---

(١) من آية ٢٥ سورة الحج

ثم سِرنا عنـــه تؤمُّ سُـــــهيلا
فرفعنـــا لواءنا معقــودا (١)

وسوف نسمع قصـة صـاحب الفيل الذى رده الله عن بيته فى العام الذى وضعت فيه « آمنة » وحيدها ، محمد بن عبد الله .. (٢)

***

وتبلغ حرمة مكة عند القوم ، مبلغا يصوره لنا ما رووه عن السيدة « عائشة » أنها قالت : مازلنا نسمع أن « اسافا ونائلة » ـ من أصـنام العرب فى الجاهلية ـ كانا رجلا وامرأة من جرهم ، أحدثا فى الـكعبة ، فمسخهما الله تعالى حجَرين !

وقد ذكر ابن اسحق فى « السيرة » وابن الـكلبى فى « الأصنام » وياقوت فى « معجمه » نسبَ هذين المخلوقين اللذين مسـخا حجرين ، لاعتدائهما على حرمة الكعبة .. (٣)

كما يصور تلك الحرمة ، مانقل ابن هشام فى السيرة النبوية : « أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى اسماعيل ، انه كان لا يظعن من مكة ظاعنٌ منهم ـ حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد ـ الا حمَل معه حجارة من حجارة البيت تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه ـ أى الحجر ـ فطافوا به كطوافهم بالكعبة .. »

وكانت خدمة الكعبة نذرا غاليا تنذر له الأمهات والآباء فلذات أكبادهم من قديم الزمان ، من ذلك ماروروه أن امرأة من « جرهم » كانت لاتلد ، فنذرت لله ان هى ولدت رجلا أن تصدق به على الكعبة عبدا لها يخدمها ويقوم عليها ، فولدت « الغوث بن مر بن أد بن طابخة » فكان يقوم على الكعبة فى الدهر الأول مع أخواله من جرهم ، وفاء بنذر أمه :

---

(١) القصة مروية بمزيد تفصيل فى الجزء الاول من السيرة النبوية لابن هشام ، والجزء الثانى من تاريخ ابن الاثير

واقرأ فى (السيرة : ١/٣٦) قصيدة لـ« سبيعة بنت الاحب » خالد بن عبد منـاف ابن كعب المرى » تعظم عليه حرمة مكة وتنهاه عن البغى فيها ، وتذكر قصة تبع الحميرى .

(٢) السيرة : ١/١٦٧

(٣) السيرة : ١/٨٤ وانظر « الاصنام لابن الكلبى »

انى جعلتُ ربِّ من بنيَّهْ
ربيطـــةً بمكة العليَّـــــه
فباركَنْ لى بهـــا أليَّه
واجعـــله من صالح البريَّه

بهذا ومثله حدث النقلة وأكّد الرواة ، وانه لشاهد على مدى ماوصلت اليه حرمة « البيت العتيق » فيهم ، ومكانة « مكة » عندهم ، تلك المكانة التى تنافس من أجلها المتنافسون وتقاتل المتقاتلون :

حاربت « خزاعة » جرهماً حتى أخرجتهم من مكة ، وظلت ولايةالبيت فى « خزاعة » يتوارثها بنوها كابرا عن كابر ، حتى انتزعها منهم « قصى ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن النصر » الذى هو قريش على أرجح الروايات .

وكان « قصى » يدعى زيدا حتى مات أبوه « كلاب » وتركه فطيما ، فخرجت به أمه « فاطمة بنت ســـعد » الأزدية حين تزوجها « ربيعة بن حرام » واحتملها الى بلاده ، وبقى « زهرة » أخو « قصى » فى مكة ، اذ كان قد بلغ مبلغ الرجال ..

وشب « قصى » غريبا وهو لا يعرف الا أنه ابن « ربيعة » زوج أمه ، حتى تسابَّ هو ورجل من قضاعة ، فعيَّره قائلا :

ـــ لستَ منا ، وانما أنت فينا مُلصَق ..

فدخل على أمه وقد وجم لذلك ، فقالت له :

ـــ يابُنى ، صدَق .. انك لست منهم ، ولكن رهطَك خير من رهطه ، وآباءك أشرف من آبائه ، وأنت قرشى ، وأخوك زهرة ، وبنو عمك بمكة ، وهم جيران بيت الله الحرام ..

وعاد الى مكة رجلا ، فانتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه ، واذ ذاك رأى أنه « أولى بالكعبة وبأمر الكعبة ، من خزاعة وبنى بكر ، لأنه قرشى ، وقريش سليل اسماعيل وصريح ولده »

وشبّت الحرب شعواء بين قريش ومن حالفها، وبين خزاعة وبنى بكر، ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، وحكّموا « يعمر بن عوف البكرى » فقضى بأن « قصيا أولى بالكعبة وأمر مكة ، من خزاعة »

ويقول الذين كتبوا تاريخ مكة ، إنها قد بدأت بقصيٍّ عهدا تضاءلت الى جانب مجده عهود خزاعة وجرهم ، وجدّت فيها وظائفُ دينية أضيفت الى ما كان لها من قبل ، فكانت الى قصى « الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، وبها حاز شرف مكة كله وأبقاه فى ولده من بعده ، ما يعرف المؤرخون ان احدا نازعهم فيه قط ..

وكان أمر « قصى » فى قومه ، مدى حياته وبعد موته ، كالدين المتبع لا يُعمَل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، وجعل بابها الى مسجد الكعبة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها

فلما أدركه الكِبر ورقَّ عظمُه ، عز عليه ألا يدرك ولدُه البكرُ « عبد الدار » ما بلغه أخوه « عبد مناف » فى زمان أبيه من شرف ، فقال الشيخ لعبد الدار :

« أما والله يابنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليك » ثم جعل اليه كل ما كان بيده من أمر قومه ..

قالوا : وهلك قصى ، ولبثت قريش على ما أراد لها زمنا ، حتى قام بنو عبد مناف بن قصى : عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عمهم « عبد الدار » مما كان جدهم «قصى» قد جعله اليه من : الندوة ، والحجابة، واللواء ، والسقاية، والرفادة ، اذ رأوا أنهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فيهم ، فتفرقت عند ذلك قريش وأجمعوا للحرب ، ثم تصالحوا على أن يقتسموا الميراث الجليل :

لبنى عبد الدار : الحجابة واللواء والندوة

ولبنى عبد مناف : السقاية والرفادة ..

وظائف دينية ضخمة ، استحدث بعضَها «قصى» ، وبعضُها قديم عريق

طالما اعتز به الذين تولوه ، اعتزازا وعاه الزمن وسجله الشعراء مباهين

قال « أوس بن تميم السعدى » مفاخرا بماكان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفه :

لا يبرح الناس ما حجُّوا مُعَرّفَهم
حتى يقــال : أجيزوا آل صــفوانا
مجــد" بنــاه لنــا قِدما أوائلنـــــا
وأورثوه طـــوالَ الدهر أخـــرانا

وقال « عمير بن قيس » أحد بنى مالك بن كنانة ، يفخر بالنسأة على العرب :

لقــد علمت معـــدٌ أن قــومى
كـــرام النـــاس أن لهـــم كــراما
فأى النـــــاس فاتونا بوترٍ ؟
وأى النـــاس لم نَعلِك لجــاما ؟
ألســـنا الناســئين على معـــدٍّ
شـــهورَ الحِل نجعلهـــا حراما ؟

وذلك أنه كانت للعرب أشهر حُرُم لا يحل لهم فيها قتال أو غارة أو طلب ثأر ، الا أن ينسأها لهم أحد النسأة ..

ثم كانت للعرب فى مكة طقوس ومشاعر ومناسك منذ رفع «ابراهيم» القــواعد من البيت و « اسماعيل » ، وعهد الله اليهما أن يطهرا بيتــه للطائفين والعاكفين والركع السجود :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرِنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم »

وقد ذكرنا آنفا ، ما كان من تقديس بعض بنى اسماعيل لحجارة الحرم التى حملوها معهم تبركا . ثم خلف من بعدهم خلف" نسوا ماكانوا عليه فعبدوا الأوثان . وبقيت فيهم على ذلك بقايا منعهد ابراهيم يتمسكون بها ،

من تعظيم البيت والطواف به ، والحج ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهَدى البُدن ، والاهلال بالحج ، والتلبية .

***

وطال المدى و « مكة » مهوى الأفئدة وقبلة العرب ، لا تكاد بقعة أخرى تجرؤ على منافستها أو تطمع فى انتزاع مجدها ، حتى ترتد دون الغاية خاسئة حسرى ..

وذاكرة الزمن قد وعت من أمر تلك المنافسة فى خارج الجزيرةوداخلها، مايتناقله الاخباريون من حديث البيت الذى أقامه « الغساسنة »بالحيرة ، والكنيسة التى بناها « أبرهة الأشرم » فى صنعاء ، ليصرف اليها حج العرب ..

وقد جلب اليها « الرخام المجزع » والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان القصر من موضع هذه الكنيسة على فراسخ ، وفيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ما أراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنس » (١)

ثم كتب الى مولاه نجاشى الحبشة : « انى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف اليها حجّ العرب »

لكن « أبرهة » هلك دون غايته ، وبقى البيت العتيق بمكة كما كان ــ وكما سيظل الى الأبد ــ مثابة الخائفين ، وقبلة الحجاج العابدين ، دعوة ابراهيم الخليل وأذانه فى الناس :

« وأذّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجّ عميق » (٢)

وماتزال الدنيا ــ حتى الساعة ــ تقف خاشعة حائرة أمام ذلك الجلال الذى استأثرت به « مكة » دون سواها من مدائن كبيرة ، وحواضر أجمل

(١) الروض الانف : ١/٣٠
(٢) سورة الحج . آية ٢٧

منظرا وأرغد عيشا وأخصب أرضا ..

وما زال كثير من المستشرقين ، فى عجب من أمر تلك العزة المنيعة ، تظفر بها بقعة جرداء فى واد غير ذى زرع ولا ظل ، يصفها زائر منهم فى القرن العشرين فيقول :

« فى قلب الصحراء ، فى واد قفر بين سلسلتين من الجبال الصخرية يحجبانها فلا يحس الحاج بلوغها حتى يقع نظره على طرقها ..

« تقع بين تلال صخرية سود ، ذات أطوال متساوية تمتد عدة أميال ، حتى ليخال المرء أن لانهاية لتلك التلال الجرداء ، ولا لتلك الصحراء المترامية التى يكاد ضوؤها يذهب بالأبصار ، ولا يأمل المرء أن يختلس برهة ينجو فيها من حرارتها اللافحة . فحصاها ، وصخورها الصم ، تبعث الى السماء بخارها فتبدو كأنها فحم يحترق ، ويصعد الى السماء دخانه ..

« واذا استثنينا بضع شجرات السنط المتناثرة ، بدت معالم الحياة كأنما جمدت فى تلك الفلاة ، فالوحشة تامة ، والسكون مسيطر ، ولا يصك أذنيك الا صفير الريح الصرصر العاتية ..

« وحتى السراب الذى يخدع المسافر فيجعله يأمل فى النخيل أو ظلال الحدائق الرطبة ، لا وجود له ، فلا نخيل هناك ، ولا حدائق توحى بالتفكير فيها وتمنيها ، فما من شىء ينبت فى بلدة الرسول المقدسة ، والليل هو الملاذ الوحيد من حرارة الشمس الكاوية » (١)

بهذا وصف « بودلى » البلد الحرام الذى ظلت له حرمته لاتدرك ولا تنافس ، ولعل التفاتة سريعة الى تاريخه القديم ، تجلو لنا سر تلك القداسة العريقة التى لم تنل منها السنون ولا عَدَت عليها عوادى الزمان ..

***

أترى حديثنا عن « مكة » و « البيت العتيق » قد طال ؟

لا بأس علينا من ذلك ، ففى هذه البيئة المقدسة تفتحت عينا الفتاة التى عرفها التاريخ أماً خالدة .

---

(١) بودلى : « الرسول » ــ الترجمة العربية للسحار

فيها كان منبت «آمنة بنت وهب» والدة اليتيم الهاشمي العربى الذى بعث فى مكة ، فأيد بمبعثه فيها ما كان لها من حرمة عريقة ظل العرب يتوارثونها جيلا بعد جيل ، واتخذ من الكعبة التى تعبَّد فيها « الخليل »، قِبلتَه التى يُولى المسلمون وجوههم قبلَها حيثما كانوا فى مشرق أو مغرب ، ما عُبد الله فى الأرض ...

بنو زهرة

« ... لم يزل الله ينقلنى من الاصلاب الطيبة الى الارحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »

« من حديث شريف »

فى يوم لم يحدده التاريخ ، فى نحو منتصف القرن السادس الميلادى ، رأت النورَ سليلة أسرةٍ نابهة ، من القبيلة التى كانت ذات الشأن الأول فى تلك المنطقة المقدسة ، والتى استأثرت وحدها بوظائفها الدينية الضخمة وما يتبعها من أمجاد وامتيازات ...

وتحمل الأسرة اسم « زهرة » (١) ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى — وبه كان يكنى فيقال : أبو زهرة (٢) والأخ الشقيق لـ « قصى » الذى وَلِىَ أمرَ مكة ماعاش ، ثم تركها لقريش ميراثا مجيدا لم تنافسها فى شىء منه قبيلة أخرى ، حتى جاءها « محمد » حفيد قصى وزهرة ابنى كلاب ، بمجد الدهر وعز الأبد !

وأم زهرة وقصى : « فاطمة بنت سعد بن سَيَل » أحد بنى الجدَرة .

---

(١) كذا فى تاريخ الطبرى ، والسيرة ، لابن هشام ١/١٠٩ • وليس فى جمهرة « انساب العرب » ولا فى « نسب قريش » اشارة الى خلاف فى أن زهرة رجل • فحيثما ورد ذكره فى الانساب كان « زهرة بن كلاب » — انظر جمهرة الانساب صفحات : ١٢ ، ١١٩ وما بعدها لكن جاء فى « المعارف لابن قتيبة » ان زهرة اسم امرأة عرف بها بنو زهرة • قال « السهيلى » فى الروض الانف ١/٧٩ » : « وهذا منكر غير معروف ، وانما هو جدهم كما قال ابن اسحاق »

يشير الى قول ابن اسحق : « فولدكلاب بن مرة رجلين : قصى بن كلاب ، وزهرة ابن كلاب »

وقد علق ناشرو السيرة على هذا بقولهم فى الهامش : « وزهرة امرأة نسب اليها ولدها دون الاب ، وهم أخوال الرسول » ثم لم يزيدوا ، ولم يشيروا الى مرجعهم فى هذا العدول عن نص رواية ابن اسحاق • ويلاحظ عليهم انهم فى رقم ١ من هامش الصفحة نفسها ، نقلوا عن الطبرى نصا صريحا فى أن زهرة رجل كما نقلوا فى هامش ص ١١٥ من الجزء نفسه ، عبارة ابن قتيبة فى المعارف ، وتعليق السهيلى عليها : وهذا منكر غير معروف ، وانما هو — أى زهرة — اسم جدهم كما قال ابن اسحاق • ثم لم يعلقوا على هذا التناقض فى الروايات • وأنظر نهاية الارب للنويرى : ٦/٢٠ ونسب قريش : ١٤

(٢) نهاية الارب : ١٦/١٩

لقبوا بذلك نسبة الى جدهم « عامر بن عمرو الأزدى » وكان قد بنى للكعبة جدارا حين دخلها السيل ذات مرة ، ففزعت قريش لذلك ، وخافت ان جاء سيل آخر أن يذهب شرفها ودينها . فلما بنى « عامر » الجدار ، سمى الجادر ، ولقب أولاده من بعده ببنى الجدرة .. (١)

ولسعد بن سيل ، جد قصى وزهرة لأمهما ، يقول الشاعر :

ما نرى فى النـــاس شـــخصا واحـــدا
مَن علمنـــاه ، كسعد بن ســـيَلْ
فارســـا أضـــبط منـــه عسرةً
واذا ما واقفَ القِـــرنَ نـــزل
فارســـا يســـتدرج الخيـــل كمـــا اســـ
ـــتدرج الحر القطـــامى الحَجلْ (٢)

***

عُرِف « بنو زهرة » منذ كانوا ، بالود الخالص لبنى عبد مناف بن قصى دون اخوتهم من بنى عبد الدار . وقد سبقت الاشارة ، فى حديثنا عن « البيت العتيق » إلى ماكان من أمر « قصى » حين كبر ورق عظمه ، فعز عليه ألا يبلغ ابنه البكر « عبد الدار » مابلغه ابنه « عبد مناف » من شرف ورفعة ، فقال قصى لبكره :

« أما والله يابنى لألحقنك بالقوم وان كانوا قد شرفوا عليه : لا يدخل رجلٌ منهم الكعبة حتى تفتحها أنت له ، ولا يعقد لقريش لواءً لحربها الا أنت بيدك ، ولا يشرب أحدٌ بمكة الا من سقايتك ؛ ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما الا من طعامك . ولا يُقطع أمر من أمورها الا فى دارك » .

ثم كان ما كان من اذعان قريش لوصية شيخها حينا ، ثم اجماع بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار ، لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند

(١) المصعب الزبيرى : نسب قريش ١٤ ذخائر ـ ابن هشام : السيرة ١/١٠٩ حلبى
(٢) السيرة لابن هشام • ١/١١٠ • وانظر أخبار مكة للازوحى : ١١
والقرن : النظير • والحر القطامى : الصقر

ذلك قريش ، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف ، يرون أنهم بمكانتهم فى قومهم ، أحق بالأمر من بنى عبد الدار ، وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون الا ينزع منهم ماكان « قصى » جعله اليهم .

وعقد كل فريق على أمرهم حلفا مؤكدا ، على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فأخرجت نساء بنى عبد مناف جفنة مملوءة طيبا،فوضعوها لأحلافهم فى المسجد عند الكعبة ، ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم، فسموا بالمطيبين . كما تعاهد بنو عبد الدار وحلفاؤهم عند الكعبة ، على مثل ذلك ، فسموا بالأحلاف .

وقد كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف فى ذاك الحلف ، ولماعبئت كل قبيلة من المطيبين لأخرى من الأحلاف ، عبئت « زهرة » لبنى جمح ، وأقسمت لتفنينها (١)

كما كان « بنو زهرة » مع بنى عبد مناف اخوة متجاورين لا ينفصلون، وبيوتهم متجاورة كذلك ، فحين جزأت قريش الكعبة ، كان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ومن انضم اليهم من قبائل ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم، وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ..

***

وكذلك كان « بنو زهرة » ممن سبقوا الى تلبية النداء حين تداعت قبائل من قريش الى « حلف الفضول » قبل المبعث بنحو عشرين سنة ، وكان أكرم حلف واشرفه . وذلك أن رجلا من زبيد قدم الى « مكة » ببضاعة فاشتراها منه العاصى بن وائل ، وكان ذا قدر بمكةوشرف،فحبس عن الزبيدى حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف : عبد الدار،ومخزوما،وجمح، وسهما ، وعدى بن كعب ، فأبوا ان يعينوه على العاصى وانتهروه ، فلما رأى « الزبيدى » الشر ، أوفى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس ،

---

(١) السيرة : ١٣٩/١

وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح بأعلى صوته :

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعته
ببطن مكة ، نائى الدار والنفر
ومُحرِم أشعثٍ لم يَقض عُمرتَه
يا للرجال ، وبين الحِجر والحَجَر
ان الحرام لمن تمَّت كرامته
ولا حرامَ لثوبِ الفاجر الغَدر

فقام على أثر ذلك « الزبير بن عبد المطلب » وصاح : ما لهذا مَتْرك !

قالوا : فاجتمعت هاشم وزهرة ، وتيم بن مرة ، فى دار عبد الله بن جدعان : أحد بنى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى — وعبد الله هو ابن عم السيدة عائشة — فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا على « ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا أقاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد له مظلمته »

وانصفوا « الزبيدى » من العاصى بن وائل

فيروى « ابن اسحاق » عمن سمع « طلحة بن عبد الله الزهرى » أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حُمر النعم ، ولو أدعَى اليه فى الاسلام لأجبت»

- ***

من هذه الأسرة القرشية الكريمة التى عُرفت من قديم بصلة الود لبنى عبد مناف بن قصى ، والتى ذكر لها التاريخ مشاركتها فى الامجاد الكبرى لقريش ، واتصالها الوثيق بالأحداث الجليلة التى شهدتها « مكة » قبيل الاسلام ، وتحالفها مع « هاشم » وبنيه فى الحلفين العظيمين : حلف المطيبين وحلف الفضول .. من هذه الأسرة كانت « آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة » التى توجت ذاك المجد العريق بالشرف الذى لا يُدرك ولا ينال ..

أبوها « وهب » سيد بنى زهرة ، وجدها عبد مناف بن زهرة الذى

يقرن اسمه بابن عمه عبد مناف بن قصى ، فيقال : « المنافان » تعظيما وتكريما (١)

وجدتها لأبيها : « عاتكة بنت الأوقص بن‌مرة بن‌هلال السلمية » إحدى العواتك اللواتى اعتز بهن الرسول فقال :

« أنا ابن العواتك من سليم »

ولم يكن نسب « آمنة » من جهة أمها ، دون ذلك عراقةً وأصالة ، أمها : « برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى »

وجدتها لأمها : « أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى »

ووالدة أم حبيب : « برة بنت عوف بن عبيد بن عويج بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر »

سلالة عريقة أصيلة ، أنبتت « آمنة » وهيأتها لأمومتها التاريخية ..

ووارثات مجيدة ، أهدتها الى ولدها فجمعت له عز المنافين : « عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وعبد مناف بن قصى بن كلاب » وجعلته ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعتز بنسبه فيقول من حديث رواه « ابن عباس »:

« .. لم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الطيبة الى الأرحام الطاهرة مصفى مهذبا ، لا تتشعب شعبتان الا كنت فى خيرهما »

وعن « أنس » أنه قال :

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (٢) « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » ــ بفتح الفاء ــ وقال : « أنا أنفسَكُم نسبا وصهرا وحسبا »

نسبٌ تحسَبُ العــــلا بِحُــــلاه
قلدته نجومَهــــا الجــــــوزاءُ
حبـــذا عقـــدُ سـؤددٍ وفخـار
أنتَ فيـــــه اليتيمةُ العصـــماء

(١) الروض الانف : ١/١٠٤ ــ وارجع الى الفصل الخاص « بأمهات الرسول » فى الجزء ١٦ من نهاية الارب للنويرى • ط دار الكتب• ونسب بنى قصى فى « جمهرة أنساب العرب» ١١٨ وما بعدها ط الذخائر • ونسب قريش : ١٤ ذخائر »

(٢) من آية ١٢٨ سورة التوبة

الفصل الثالث

زهرة قريش

— فتاة زُهرة

— فتى هاشم

— العرس ..

— البشرى ..

فتاة زهرة

« ... وكانت يومئذ أفضل فتـــاة في قريش نسبا وموضعا »

(ابن اسحاق)

تفتح صباها فى أعز بيئة وأطيب منبت ، فاجتمع لها من أصالة النسب ورفعة الحسب ، ما تزهو به فى ذاك المجتمع الملكى المعتز بكرم الأصول ومجد الأعراق ..

كانت زهرة قريش اليانعة ، وبنت سيد بنى زهرة نسبا وشرفا ، وقـد ظلت فى خدرها مصونة عن الابتذال ، فما فى الرواة من يصف لنا ملامحها أو يتمثل صورتها . ومجمل ما ذكره المؤرخون عنها ، انها ــ عنـدما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب ــ « كانت يومئذ أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا » (١) ..

على أن شذاها العطر كان ينبعث من دور بنى زهرة ، فينتشر فى أرجاء مكة ويجذب شبانها الأكرمين الذين زهدوا فى كثيرات سواها ، ابتذلتهن العيون والألسنة ، فى دروب أم القرى وأسواقها ...

***

وقد عرفت « آمنة » فى طفولتها وحداثتها ، ابنَ العم « عبد الله بن عبد المطلب » بين من عرفت من لداتها ، أبناء البيوت القرشية ، اذ كان البيت الهاشمى أقربها جميعا الى آل زهرة : جمعتهما أواصر ود قديم لم تنفصم عراه منذ عهد الشقيقين « قصى وزهرة : ولدى كلاب بن مرة »

(١) ابن هشام : السيرة ١/١٦٥.

وقبل أن ينضج صباها ويحجبها خدرها ، تلاقت واياه فى الطفــولة البريئة على روابى مكة وبين ربوعها ، وفى ساحة الحرم الأمين ، كمـــا جمعتهما مجامع القبيلة حيث كان عبد المطلب سيد بنى هاشم ووهب سيد بنى زهرة يتزاوران على ود ، ويجتمعان للتشاور كلما أهم « قريشا » أمر ..

***

وحين لاحت بوادر نضجها ، كانت خطوات « عبد الله » تسرع به الى الشباب .

ورنت أنظار الفتيان من بيوتات مكة الى زهرة قريش ، وتسابقوا الى باب بيتها يلتمسون يدها ، ويزفون اليها ما لهم من مآثر وأمجاد

فتى هاشم

« ودخل عبد المطلب ببنيه العشرة على هبل في جوف الكعبة ، فقال لصاحب القداح : اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم

« وكان عبد الله احب ولد عبد المطلب اليه ، فكان يرى ان السهم اذا اخطاه فقد اشوى .. »

(ابن اسحاق)

لم يكن « عبد الله » بين الذين تقدموا لخطبة « زَهرة قريش » مع أنه الجدير بأن يحظى بيدها دونهم جميعا ، فما كان فيهم من يدانيه شرفا ورفعة وفتوة ..

أبوه « عبد المطلب بن هاشم » أمير مكة « الذى شرف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم »

وأمه « فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية » من صميم البيت القرشى ، وقد أنجبت لعبد المطلب ولديه « الزبير ، وأبا طالب » أبوى جعفر الطيار ، وعلىّ الامام .

ثم أنجبت أخاهما الشقيق عبد الله ، أبا محمد الرسول

وجدة « عبد الله » لأبيه : « سلمى بنت عمرو النجارية ، وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها ، حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها اذا كرهتْ رجلا فارقته » (١)

***

ولعل « آل وهب » لم يعجبوا لموقف « عبد الله » اذ لم يتقدم

(١) السيرة لابن هشام ، ج ١

لخطبة « آمنة » ، فما كانوا يجهلون أن أباه قد نذر نذرا غليظا ، لينحرن أحد بنيه لله عند الكعبة

وأى القرشيين لم يعلم قصة ذلك النذر المحتوم ، الذى يقرر مصير أبناء شيخ بنى هاشم ، وفيهم عبد الله ؟

كان « عبد المطلب » حين انتهت اليه امارة « مكة » وولىَ السقاية فيما ولى من وظائف الحرم ، يطيل التفكير فيما يلقاه الحجيج من مشقة بسبب شح الماء .

وذكرَ بئرَ «زمزم» التى أنقذت جده «اسماعيل» من الهلاك ، وجذبت الى « مكة » القوافل على آثار الرعاة .. وذكر ما وعاه سمعه مما نقل الآباء عن الأجداد ، ورددته الرواة فى مسامر « مكة » ومجامعها عن حديث « جرهم » ودفنها « زمزمَ » حين أرغمت على الخروج من مكة ، فودّ لو وفقه الله الى العثور على موضع البئر المطمورة ، اذن لكان له شأن أى شأن ! ..

وقويت رغبته هذه مع طول التفكير ، حتى صارت مشغلة نهاره وليله ؛ وخايلته الرؤى فى منامه تبشره بتحقيق أمله العزيز !

وفى الرواية عن « على بن أبى طالب بن عبد المطلب » :

« قال عبد المطلب : انى لنائم فى الحجر اذ أتانى آت فقال :

ـ احفر زمزم ، انك ان حفرتها لم تندم ، وهى تراث من أبيك الأعظم ، لا تنزف أبدا ولا تذم ، تسقى الحجيج الأعظم ..

فغدا « عبد المطلب » بمعوله ومعه ابنه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره ، حتى اذا همّ بالحفر بين وثنى « أساف ونائلة » قامت اليه قريش تصده قائلة : والله لانتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما

فالتفت « عبد المطلب » الى ابنه « الحارث » وقال :

ـ ذُدْ عنى حتى أحفر ، فوالله لأمضين ما أمرت به » (١)

(١) السيرة : ١٥٤/١

وقاومت قريش ، وعيّرته بقلة الولد ، على حين أصرّ هو على أن يمضي في الحفر ، فلما بدت له الحجارة التي طويت تحتهـا البئر ، رفع صوته مكبرا ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ، فقاموا اليه فقالوا :

ـ يا عبد المطلب ، انها بئر أبينا اسماعيل ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها ..

قال :

ـ ما أنا بفاعل ، ان هذا الأمر قد خُصِصتُ به دونكم ، وأعطيته من بينكم ..

فقالوا : فأنصفنا ، فإنا غيرُ تاركيك حتى نخاصمك فيها ..

قال : لا ، ولكن هلموا الى أمر نَصَف بيني وبينكم : نضرب عليهـا بالقداح ، أجعل للكعبة قدحين ، ولي مثلهما ، ولكم كذلك ، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له ..

قالوا : أنصفت

وضُربت القداح ، فخرج قدحا الكعبة على الذهب ، وقدحا عبد المطلب على الأسياف والدروع ، وتخلف قدحا قريش !

ومن ثم أقام عبد المطلب سقاية زمزم للحُجاج ، لا ينازعه في مائها أحد من قومه قريش

وعبد المطلب ـ حين اشتغل بحفر البئر ـ لم يكن له من الولد سوى ابنه الحارث ، فلما لقي من قريش ما لقي ، وسمع تعييرها اياه بقلة الولد ، نذر يومئذ ، لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا حتى يمنعوه ، لينحرنّ أحدهم عند الكعبة .

وتوافى بنوه عشرة ، وكان « عبد الله » أصغرهم جميعا (١) ، فتلبث عبد المطلب حتى اذا عرف أنهم بحيث يمنعونه ، دعاهم الى الوفاء لله بنذره فلبوا طائعين ..

***

أصبحت « قريش » ذات يوم من شهر جمادى الأولى — قبل المبعث بنحو احدى وأربعين سنة — ولا حديث لها الا « عبد المطلب » الذى خرج ببنيه العشرة الى الكعبة ، وقد حمل كلٌّ منهم قِدْحا عليه اسمُه ، واستسلموا للمصير المقدور صابرين ..

وخفقت قلوب نساء قريش جميعا عطفا وحنانا فى انتظار اللحظة الفاصلة ، ولعل عددا منهن قد ذهب مع بنات عبد المطلب فيمن ذهب الى الكعبة ، ليسمع كلمة رب البيت فى الذبيح المختار. والراجح أن «آمنة» لم تبرح دار أبيها ، بل أقامت تترقب الأنباء فى لهفة ، وهى لاتدرى أى بنى العم عبد المطلب ، يختار رب الكعبة وفاء بنذر شيخ الهاشميين ..

ومضت الساعات ثقيلة بطيئة ، وما من عائد يخبر عما كان هناك فى الحرم ..

***

ثم انتشر الخبر فجأة فى سرعة البرق فملأ أرجاء مكة ، متنقلا بين أندية قريش ودورها حتى بلغ مسمع « بنت وهب » :

لقد اختارت الكعبة « عبد الله » ذبيحا

ووجمت « آمنة » للنبأ كما وجمت له كل قرشية يعز عليها أن ينحر زين

---

(١) السيرة : ١/١١٤ — شرح المواهب للزرقاني ١/٩٤ — نهاية الارب : ١٦/٥٠ ، ٥١ وعلق ناشرو السيرة ، على قول ابن اسحاق : « وكان عبد الله بن عبد المطلب اصغر بنى ابيه» بما نصه : « الظاهر أنه يريد أن عبد الله كان اصغر ولد ابيه حين أراد نحره . أو لعل الرواية : اصغر بنى أمه . والا فالمعروف أن حمزة كان اصغر من عبد الله .. » الخ ، والموقف يحتاج الى مزيد ببان : فلا خلاف فى أن حمزة ولد بعد حادث الفداء ، وكان تربا لمحمد ابن أخيه عبد الله . وفى الخبر أن عبد المطلب خطب لنفسه هالة الزهرية يوم خطب لابنه عبد الله آمنة بنت وهب . وهالة هى أم حمزة بن عبد المطلب . راجع (جمهرة أنساب العرب : ١٣) و (نسب قريش : ١٧) و (الاستيعاب : ١/٣٧١ ط نهضة مصر)

شباب مكة وأعز أبناء « عبد المطلب » على أبيه وعلى بنى هاشم جميعا !

وبكت بنات عبد المطلب ، وكنّ قياما هناك ينتظرن أمر الله (١) ..

وتتابعت الأخبار بعد ذلك سراعا ، تصف كيف دخل شيخ بنى هاشم بأبنائه العشرة على «هُبَل» فى جوف الكعبة ، وأخبر صاحب القداح هناك بنذره ، ثم قاوم عاطفة الأبوة ، بكل مايملك من شجاعة وتصميم وايمان ، ليقول لصاحب القداح :

« اضرب على بَنىّ هؤلاء بقداحهم هذه » !

فأعطاه كل واحد من الأبناء العشرة قدحه الذى فيه اسمه ، وأبوهم ينقّل عينيه بينهم جميعا ، حتى استقرت نظراته آخر الأمر على أصغرهم « عبد الله » ففاض قلبه رقة وحبا واشفاقا ، ورأى « أن السهم اذا أخطأ هذا الفتى الحبيب ، فقد أشوى ! »

وحانت اللحظة الحاسمة :

ضرب صاحب القداح ، و « عبد المطلب » قائم عنـد هبل يدعو الله ، فخرج القدح على عبد الله !

هنالك جمع الشيخ كيانه المهتز ، وأخذ ولده الغالى بيد ، وأمسك الشفرة باليد الأخرى ، ثم أقبل به على « أساف ونائلة » ليذبحه ! (٢)

بهذا كله ، طارت الأنباء فى أرجاء « مكة » حتى بلغت حىّ بنى زهرة ، ثم أمسك الراوى ، وخيم الوجوم الحزين على الأفق ، وجمدت الأعين فما تجود بدمعة ! ..

وأقفرت دار سيد بنى زهرة من رجالها ، كما أقفرت أندية قريش جميعا ودورها .. ترى هل ذهبوا ليشهدوا مذبح عبد الله ، ويكونوا الى جانب أبيه فى محنته القاسية ؟

هكذا ظنت « آمنة » وتمنت فى تلك اللحظة ، لو أنها استطاعت أن تنطلق فى اثر قومها وهم يسعون الى الحرم مهرولين ، ولكن ماذا عساها

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٥٤/١ ط اوروبا
(٢) السيرة لابن هشام : ١٦٢/١ ـ الطبرى ١٧٣/٢ ـ نهاية الارب : ٥٤/١٦

أن تصنع ، من أجل انقاذ ابن العم ؟ لقد قضى الأمر وفات أوان الضراعة والدعاء

وولى النهار ..

وأقبل ليل كثيف السواد متراكب الظلمات ، ورجال قريش لم يئوبوا بعدُ الى دورهم .

ما الذى أمسكهم هناك وعاقهم عن الأوبة ؟

لم تكن « آمنة » تدرى ، حتى عاد من يخبر أن الرجال قد ارتحلوا عن مكة ، فما فيها منهم الليلة سامر !

ولاح شعاع ضئيل من الأمل وسـط الظلمات المتراكمة ، حين مضى الراوى فى حديثه يقول :

ــ لم يكد الأب يهم بذبح فتاه ، حتى قامت اليه قريش من أنديتها فقالوا : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

قال : أفى بنذرى ..

فقالت له قريش وبنوه :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تُعذَر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ (١)

ووثب المغيرة بن عبد الله المخزومى ــ وهو من آل فاطمة بنت عمرو المخزومية : أم عبد الله والزبير وأبى طالب ــ فأمسك بيد عبد المطلب وهو يصيح :

ــ والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فان كان فداؤه بأموالنا فديناه ..

وأضاف شيوخ قريش :

ــ فلتنطلق بولدك الى عرافةٍ بخيبر ، لهـا تابع ، فلتسـألها : ان أمرتك بذبحه ذبحتَه ، وان أمرتك بأمر لك وله فيه فرج ، قبلتَه (٢) ..

---

(١) السيرة لابن هشام : ١/١٦٢ ــ والكامل لابن الاثير : ٢/٦

(٢) اختلفوا فى اسم العرافة ، فقيل : قطبة،وقيل : سـجاح . أنظر السهيلى (١/١٠٣)، والزرقانى (١/٩٦) والنويرى (١٦/٥٥)

فنزل « عبد المطلب » على رأى القوم ، وانطلقوا فى طريق « خيبر » يلتمسون الكلمة الفاصلة من عرافة الحجاز

مضوا وخلفوا من ورائهم قلوبا واجفة وعيونا مسهدة ، وجنوبا قد نَبَتْ بها المضاجع ، وألسنة ضارعة فى جوف الليل ، لا تفتأ تدعو الله للمستشهد الصابر : عبد الله ، فتى هاشم ..

وأعقبت رحيلهم أيام قاربت العشرين عدًّا ، وانياتِ الخطو بطيئات المسرى ، كأنما كانت تجر أثقالا من الصم الصلاب ..

وبقيت أندية قريش ومسامرها طوال تلك المدة ، مقفرة خلاءً

وغشيت بيوتَها غاشية من القلق والهم والانتظار ..

وتعلقت العيون والقلوب بمشارف الطريق الآتى من الشمال ، ترقب عودة الركب الراحل ..

وأرهفت الآذان لعلها تتسمع نبأ عن مصير الفتى العزيز ..

وتوقفت الحياة أو كادت فى تلك الأيام العشرين ، فقد غاب عن « مكة » شيخها وفتاها ، ومعهما سادة قريش ونجومها الزُهْر ..

وراح العبيد والإماء يسعون بين الدور وبين ممر القوافل ، يلتمسون هنالك وافدا من « خيبر » يعرف شيئا من أنباء الركب الغائب ..

وشهدت الليالى نفرا من العقائل الكريمات ، يخرجن من دور قريش كل ليلة ، فاذا بلغن الحرم تعلقن بالكعبة مبتهلات متوسلات ، ثم انطلقن على أثر ذلك الى «المسعى» بين الصفا والمروة ، يدعون الله أن يستجيب لضراعتهن كما استجاب لضراعة « هاجر » فى هذا المكان ، وأن ينقذ « عبد الله » كما أنقذ جده « اسماعيل » !

***

ثم كان لهذا كله آخر ، حين لاحت على الأفق الشمالى سحب من غبار مستثار ، تكشف عن قافلة تغذ السير الى « مكة » فعرج الغلمان على قمم الروابى ورءوس الجبال ، يستكشفون أمر القافلة ، فاذا الركب يدخل « مكة » على عجل ساعيا نحو ساحة الحرم ، وهناك ترجلوا جميعا

ولبثوا قائمين يدعون ، على حين مضت رسلهم الى أحياء قريش تجمع الإبل وتسوقها نحو « البيت العتيق »

وسمى غلام من موالى « بنى زهرة » ، يحدث سيدات البيت القرشى عما شاع فى البلد الحرام وذاع ، من خبر العرافة والنذر :

حدثوا أن القوم انطلقوا حتى جاءوها بخيبر ، وقص عليها « عبد المطلب » خبره وخبر ابنه « عبد الله » وما أراد به وفاء بنذره فيه . فقالت لهم :

ــ ارجعوا عنى اليومَ حتى يأتينى تابعى فأسأله ..

فلما مضوا عنها قام « عبد المطلب » ليلته يدعو ربه ، ثم غدوا عليها فقالت لهم :

ــ قد جاءنى الخبر ، كم الدية فيكم ؟

أجابوا : عشر من الإبل ..

قالت :

ــ فارجعوا الى بلدكم وقربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الابل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فان خرجت على صاحبكم فزيدوا من الابل عشرا فعشرا حتى يرضى ربكم ، وان خرجت على الابل فانحروها عنه ، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ..

ولم يكد الغلام يتم قصته ، حتى سمعت نساء « وهب » ضجة عالية تقترب ، فقمن يستطلعن الخبر ، فاذا جماعة من وجوه بنى هاشم وقريش يتقدمهم « عبد المطلب » والى يمينه « عبد الله » وهم يقتربون من بيت سيد « زهرة »

اذن فقد نجا فتى هاشم !

ما أوسع رحمتك يارب !

وهمت « آمنة » بأن تسعى الى أبيها لتسأله كيف كانت النجاة ، لولا أن فوجئت بأبيها نفسه يقف بباب الدار مرحبا بالوافدين الكرام ...

العرس

« ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد عبد الله ـ اثر افتدائه من الذبح ـ فخرج حتى اتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة ٠٠ وهو يومئذ سيد بني زهرة نسبا وشرفا ، فزوجه ابنته آمنة ٠٠ »

(ابن اسحاق)

فيم كان مقدمهم ؟ ..

لم يطل بآمنة الوقت لتعرف الخبر السعيد ، فلقد أقبلت عليها أمها « برة » بعد قليل ، متهللة الوجه مشرقة الاسارير ، لتحدثها عن « عبد الله » كيف افتدى من النحر :

« قام عبد المطلب يدعو الله ، ثم قرّبوا عبد الله وعشرا من الابل ، وضربوا فخرج القِدحُ على عبد الله

« فزادوا عشرا أخرى وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا ، فخرج القدح على عبد الله ..

« ثم ما زالوا يزيدون عشرا بعد عشر ، فيخرج القِدح على عبد الله ..

« حتى بلغت الابل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح ، لأول مرة ، على الابل ، فهتفت قريش ومن حضر :

ــ قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب !

فهز رأسه فى ارتياب ثم قال :

ــ لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات !

فضربوا على عبد الله وعلى الابل المائة ، وقام « عبد المطلب » يدعو الله ، فخرج القِدح على الابل ، ثم عادوا الثانية ، فالثالثة ، والقِدْحُ

يخرج عليها !

وعندئذ اطمأن قلب الشيخ المؤمن ، ونحرت الابل ، ثم تركت لا يُصَد عنها انسان ولا سبع ! » (١)

وسكتت الأم « برة » وقد بان عليها أنها لا تزال تطوى الذى جاءت من أجله ، وراحت ترقب أسارير ابنتها « آمنة » فى لهفة ، لكن الفتاة أفلحت فى أن تخفى رغبتها فى معرفة بقية الحديث ، وراء قناع رقيق من المداراة ، ودلها قلبها على أن أمها ما جاءت تقص عليها قصة الفداء الا تمهيدا لشأن آخر

واذ هما فى مجلسهما ذاك ، ترنو احداهما الى الأخرى كأنما تريد أن تعرف ماذا تخفى ، دخل عليهما « وهب » ليقول لابنته فى رقة وحنو :

« ان شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لابنه عبد الله » (٢)

وعاد من فوره الى ضيفه الكريم ، وترك «آمنة» تصغى الى قلبها يخفق عاليا حتى ليكاد يبلغ مسمع أمها الجالسة الى جوارها : أحقا آثرتها السماء بفتى هاشم زوجا ؟

وفى حركة تلقائية ، وضعت «آمنة» يدها على قلبها خشية أن ينم خفقانه عن انفعالها بالذى سمعت ، ولم تفت هذه الحركة أمها ، فاحتضنتها فى حنو غامر مخدر ، فأسلمت نفسها الى صدر الأم ، وأباحت لقلبها أن يخفق كيف شاء !

***

وطاب لها أن تبقى هكذا فى حضن أمها : صامتة هادئة ، لولا أن سيدات آل زهرة توافدن واحدة فى اثر أخرى ، مهنئات مباركات

وأحطن بالعروس يتحدثن عما ترامى اليهن من تعرض نساءٍ من قريش لـ « عبد الله » ووقوفهن فى طريقه بين الحرم ودار وهب ، يعرضن

(١) السيرة لابن هشام : ١/١٦٣

(٢) فى السيرة لابن هشام « ١/١٦٤ ان وهبا هو الذى زوج ابنته آمنة . والذى فى طبقات ابن سعد « ١/٥٨ » انها كانت فى حجر عمها وهيب ، ويضيف الخبر أن عبد المطلب خطب فى المجلس نفسه « هالة بنت وهيب » وهى أم ابنه حمزة

أنفسهن عليه عرضا صريحا بادى اللهفة ..

وسمعت « آمنة » من حديثهن ذاك عجبا !

سمعت أن بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، (١) القرشية الأصيلة ، استوقفت « عبد الله » قريبا من الكعبة فقالت له :

ــ أين تذهب يا عبد الله ؟

فأجاب فى ايجاز : مع أبى ..

قالت : لكَ مثلُ الابل التى نُحِرتْ عنك اليوم ، ان قبلت أن أهب لك نفسى الساعة !

فرد عليها معتذرا فى تلطف :

ــ أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ولا فراقه ..

وقيل ان « فاطمة بنت مر » ــ وكانت من أجمل النساء وأعفهن ، أو كانت كما ذكر الطبرى وابن الأثير ، كاهنة من خثعم (٢) ــ دعته الى نكاحها فنظر اليها وقال :

أما الحرامُ فالمماتُ دونهُ
والحِل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه

وقيل كذلك ان « ليلى العدوية » عرضت نفسها عليــه يومئذ ، فلم يستجب لها ..

---

(١) هكذا اكتفى ابن اسحاق بذكر نسبها دون اسمها (السيرة : ١٦٥/١) ومثله ابن سعد فى طبقاته (١/٨٥ أول) لكن بهامش السيرة ان اسمها « رقية بنت نوفل » ونقل النويرى فى نهاية الارب (٥٨/١٦) ان اسمها « قتيلة بنت نوفل » ونقل السهيلى فى الروض الانف « ١٠٢/١ » ان اسمها «رقيقة» ومثله فى نسب قريش ١٧ . ولم يذكرها ابن حزم فى جمهرة انساب العرب : (١١١) مع ولد أبى ورقة « نوفل بن اسد بن عبد العزى » وانما الذى فيه « رفيقة بنت خويلد » أخت السيدة خديجة ، وأخت نوفل بن خويلد ، الملقب أسد قريش ، وأسد المطيبين ..

واقرأ حديث من عرضن أنفسهن على عبدالله، فى الجزء الاول من السيرة ، وفى تاريخ الطبرى ١٧٤/٢ ، والكامل لابن الاثير ٤/٢

(٢) تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ ، والكامل لابن الاثير : ٤/٢

بهـا ومثله كانت النساء يتحدثن الى « زَهرة قريش » حين توافدن عليها للتهنئة ..

وقائلة تقول :

ــ اعذرن هؤلاء المتعرضات لعبد الله ، زين شباب مكة ..

فتعقب أخرى :

ــ يا للفداء الغالى ! هل سمعتن بأحد افتدى قبله بمائة من الأبل ؟

وتضيف ثالثة :

ــ هنيئا لك يا آمنة ، لقد ظفرت بمن « تقطعت قلوب سيدات مكة من أجله » !

***

ترى هل حدث ذلك كله ؟

أكثر المؤرخين الأقدمين يروونه فى غير شك ولا ارتياب ، أما المحدثون فنرى منهم « الدكتور محمد حسين هيكل » يقرر أن الوقوف لتقصى أمثال هذه الروايات عن تعرض النساء لعبد الله ، لا غناء فيه ، وكل ما استطاع الدكتور هيكل أن يطمئن اليه ، هو « أن عبد الله كان شابا وسيما قويا ، فلم يكن عجبا أن تطمع غير آمنة فى الزواج منه ، فلما بنى بهـا تقطعت بغيرها أسباب الأمل ولو الى حين »

على حين يقول « بودلى » فى كتابه (الرسول) :

« وكان عبد الله قد اشتهر بالوسامة ، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحرا وذيوع صيت فى مكة ، ويقال انه لما خطب آمنة بنت وهب ، تحطمت قلوب كثيرات من سيدات مكة »

ولو كنا هنا نعرض حياة « آمنة » عرضا تاريخيا مجردا ، لوجدنا فى الوقوف لتقصى هذه الروايات غناء كثيرا ، أما ونحن نعرض المادة التاريخية عرضا أدبيا فنيا ، فلا معدى لنا عن الالتفات اليهـا ، كيما نرى حقيقة الصورة التى تمثلها القوم للأم التى ولدت المصطفى ..

ونكاد لا نشك فى أن « آمنة » سمعت وهى على وشك الزفاف ، كثيرا

عن تطلع غيرها من القرشيات الى فتاها المرموق ، وأنهـا تلقت التهنئة الحارة بزواجها من الشاب الهاشمى الذى ملأ الأسماع بقصة فدائه ، كما ملأ الأعين بسحر فتوته ونضارة حيويته ..

حتى اذا نفضت النسوة ما لديهن من أحاديث ، مضت « آمنة » تفكر فى فتاها الذى لم يكد يُفتدى من الذبح حتى هرع اليها خاطبا ، زاهدا فى كل أنثى سواها ، غير مُلقٍ أذنيه الى ما سمع من دواعى الاغراء !

واستمرأت طعم تأملاتها فى زحمة المهنئات ، ولذّ لها أن تغيب عنهن وهى بينهن حاضرة ، فراحت تتمثل « عبد الله » وهو يدارى عواطفـه طويلا فلا يتقدم لخطبتها قبل أن يعرف مصيره ، حتى اذا نجا لم يهرع الى داره وآله ، وانما كانت دار « آمنة » قبلته بعـد الحرم ، ومقصده اثر النجاة ومبتغاه ، فهو يسعى اليها لم يكد يطيق الصبر عنها لحظة بعـد الفداء ..

كم فكر فيها عبد الله ؟!

وماذا عانى حين التزم الصمت والانتظار ؟

وكيف يكون لقاؤهما بعد كل الذى احتمله وعاناه ؟!

أسئلة ربما خطرت على بال آمنة وهى فى حلمها المستغرق ، حتى أفاقت منه على ضجة الدار تتهيأ لعرس عاجل قريب ..

كانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشـاب الذى مسّت الشفرة منحره وهو صابر مستسلم لأمر الله ، راض بقدره ، حتى اذا لم يبق بينه وبين الموت الا قيد شعرة ، أنقذه الله بأغلى فدية عرفها العرب !

وأضيئت المشـاعل فى شتى أرجاء البلد الحرام الآمن ، وحفلت دار الندوة بوجوه قريش وساداتها ، وسهرت مسامر البلدة المقدسة تسترجع قصة الذبيح الأول حين مضى به أبوه « ابراهيم » الى قمـة الجبل لكى يذبحه طاعة وقربانا ، فافتداه الله بكبش بعد أن كان من الموت قاب قوسين أو أدنى ..

انها القصة التى تناقلها آباؤهم وأجدادهم طبقة بعد طبقة ، وجيلا من بعد جيل ، تعود فتمثل على المسرح نفسه فى البيت العتيق الذى رفع القواعدَ منه ، ابراهيمُ وولده اسماعيل ، الذبيح المفتدى ..

والبطل اليوم ، هو حفيد أصيل من ذرية « اسـماعيل » التى عمرت أم القرى ، وتوارثت مجد الجدود ..

وربما خطر لبعض السمار فى ليلة العرس تلك ، أن يصـلوا ما بين الذبيحين « اسماعيل وعبدالله » ، وربما أبعد واحد أو أكثر ، فحاول أن يتلمس وراء ستار الغد المحجب ، ماينتظر « عبد الله » من أمر ذى شأن ، كذلك الذى كان لاسماعيل بعد الفداء ..

***

واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام بلياليها ، كان « عبد الله » أثناءها يقيم مع عروسه فى دار أبيها على عادة القوم (١) ، حتى اذا أشرق اليوم الرابع ، سبقها الى داره كى يهيئها لاسـتقبال العروس ، على حين مضت هى فى ذاك اليوم تملأ عينيها من دار أبيها التى استقبلتها وليدة ورعتها صبية وفتاة ، وزفتْها عروسا ..

وأقبلت تودع أهلها وأترابها وصواحب صباها الغرير . وشغلها ذاك الوداع ساعات النهار وقطعة من المساء ، ثم جمعت نفسها وسارت فى رفقة من آلها متجهة الى دنياها الجديدة ، وهى تتلفت بين خطوة وأخرى الى الربوع التى خلفتها من ورائها ، فتحس لفراقها لذعة خفيـة من شجو وحنين ، زادهما المساء الساجى مرارة وعذوبة معا !

وانطوت على ذاتها ، فأمسكت طوال الطريق عن الكلام ، وسـارت خاشعة مخدرة ، كأنها طيف رقيق يسرى حالما ...

حتى تلقاها « عبد الله » على باب داره متلهفـا مشوقا ، فرفعت اليه وجهها المليح ، وقد أضـاءه شحوب خفيف ، وتألقت فى عينيهـا دمعتان صافيتان ..

(١) السيرة لابن هشام : جزء أول ، وانظر نهاية الارب : ٥٧/١٦

وأدرك « عبد الله » ما بها ، فلم يشأ أن ينقلها بغتة من ذكريات ماضيها الذى فارقته وشيكا ، بل قادها فى رفق الى رحبة الدار الواسعة ، حيث أعِدت هنالك مجالس للضيوف الكرام الذين صحبوا العروس من بيتها الأول ..

وراح يريها بيتها الجديد ..

ولم يكن البيت كبيرا ضخم البناء ، لكنه اذا قيس ببيوت مكة يومئذ ، عُد رحبا مريحا لعروسين يبدآن حياتهما الزوجية .

كان ، كما وصفوه :(١) ذا درج حجرى يوصل الى باب يفتح من الشمال ، ويدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر مترا فى عرض ستة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل منه الى قبة ، فى وسطها ــ بميل الى الحائط الغربى ــ مقصورة من الخشب ، أعدت لتكون مخدع العروس ..

***

وترك « عبد الله » عروسه فى مخدعها مع رفيقاتها من سيدات آل زهرة وهاشم ، ثم خرج الى رحبة الدار الواسعة ، حيث الضيوف الكرام ومضى وهَن من الليل والقوم ساهرون ، يباركون العتبة الجديدة التى انتقلت اليها زَهرة قريش ، ويدعون للزوجين الكريمين : أعز من عرفت الحجاز حسبا وأعرقهم نسبا ..

---

(١) محمد لبيب البتانونى : الرحلة الحجازية

البشرى

« وسمعت هاتفا يهتف بها فى رؤياها:
انك قد حملت بسيد هذه الأمة »

(ابن اسحاق)

ثم آب الضيوف الى منازلهم ، وهجع الكون وسكنت الدنيا ، و « عبد الله » جالس الى « آمنة » يؤنسها بحديث مثير عما رأى فى رحلته الى كاهنة الحجاز ..

سألته العروس وقد أنساها لطفه ما كانت تجد من شجن لفراق بيتها الأول :

ـ هلا حدثتنى يا عبد الله عن أولئك النسوة اللاتى شغلنك فى أيامك هذه ؟

فانبسطت أساريره لاقبالها عليه ، وقال يجيبها :

ـ ماشغلننى عنك قط يا آمنة ، ولكنه الذى سمعتِ من تعرضهن لى ، وانصرافىَ عنهن اليك وحدك ! على أن للقصة بقية لم تسمعى بها ، لأنها حدثت فى يومنا هذا ، اذ كنت عائدا من بيت أبيك لكى أهيىء دارى لاستقبال عروسها الغالية ، وشغلتُ بهذا يومى كله ، فلم أكد أحدث أحدا بما كان !

قالت وقد استثار أشواقها لمعرفة القصة :

ـ أخاطبات جديدات يطلبن القرب من فتى مكة الأوحد ؟

فتبسم ضاحكا من دعابتها الحلوة ، وأجاب :

ـ كلا يا آمنة ، بل زاهدات فيه منصرفات عنه ، كأن لم يكن هو نفسه الذى تعلقن به منذ بضعة أيام ، وأنستهن رغبتُهن فيه ما عُرف عن مثلهن من حياء وتعفف !

وأمسك فترة يرنو الى عروسه ، كأنه يريد أن يلمس وقع الحديث

عليها ، فما زادت على أن أومأت اليه ليمضي في قصته

فاستجاب لايماءتها واستطرد يقول :

ـ أجل ياابنة وهب ! زاهدات فيفتاك كأنه أُبدِل خلقا جديدا . مررتُ بهن اليوم في طريقي بين دار أبيك ودارنا هذه ، فأشَحْنَ عني بوجوههن معرضات ، الى حد أثار عجبي وفضولي الى معرفة سر هــذا الانقلاب ، فسألت احداهن « بنت نوفل » :

« مالك لاتعرضين عليَّ اليوم ، ما كنت عرضتِ عليَّ بالأمس ؟ »

فكان جوابها العجيب أن قالت :

« فارقكَ النــورُ الذي كان معــك بالأمس ، فليس لي بك اليوم حاجة ؟ » (١)

وكذلك أعرضت عني « فاطمة بنت مر » قائلة :

« قد كان ذلك مَرَّةً ، فاليومَ لا » (٢)

ثم أضافت : « اني والله ما أنا بصاحبة ريبة (٣) ، ولكني رأيت فيوجهك نورا فأردت أن يكون لي ، فأبى الله الا أن يجعله حيث أراد ، فما صنعتَ بعدي ؟ »

قلت : « زوجني أبي آمنة بنت وهب »

فأنشدتْ : (٤)

لله ما زُهرية ســــلبتْ
منكَ الذي استلبت وما تدري !

ثم قالت في تحسر :

ولما قضت منه « أمينةُ » ماقضت
نبا بصري عنــه وكلَّ لســاني

وسألتُ الثالثة : « ليلى العدوية » ماذا صدها عني ؟.. فأجابت :

(١) الحوار بنصه عن « ابن اسحق » في السيرة : ١/١٦٥

(٢) ذهبت كلمتها هذه مثلا ، أنظره في مجمع الامثال للميداني : ٢/٣٤

(٣) هذه عبارة الطبري : ٢/١٧٤ وابن الاثير ٢/٤ وفي نهاية الارب : اني والله لسعت بصاحبة زنبة (١٦/٦١)

(٤) أنظر بقية الابيات في تاريخ الطبري « ٢/١٧٤ » وفي نهاية الارب : ١٦/٧٧

« مررتَ بى وبين عينيك غرة بيضاء ، فدعوتُك فأبيتَ علىَّ ، ودخلتَ على آمنة فذهبتْ بها »

وصمت « عبد الله » وسكتت العروس ، وقد راحا يفكران فى ذلك الموقف الغريب الذى وقفته نسوة قريش من « عبد الله »

ثم كانت « آمنة » هى التى قطعت الصمت فجأة ، بأن سألت زوجها أن يعيد عليها ما كان بينه وبين « بنت نوفل »

فتساءل « عبد الله » وقد رابه مايبدو عليها من اهتمام :

ــ ولماذا تسألين عن بنت نوفل دون سواها ؟

أجابت « آمنة » فى جد :

ــ ستعرف بعدُ ، فهلا أعدتَ لى ما قالت ؟

فلم يسع عبد الله الا أن قال :

ــ سألتها : مالكِ لا تعرضين علىَّ اليوم ما كنت عرضتِ علىَّ بالأمس ؟

فأجابت : فارقك النور الذى كان معك ، فليس لى بك اليوم حاجة .

فعلّقت « آمنة » بعد فترة تفكير :

ــ والله يا ابن العم ، انى لأرى لهذا الأمر ما بعده ، فهذه المرأة أخت « ورقة بن نوفل » وهو ــ كما تعلم وأعلم ــ قد تنصر واتبع الكتب ، وبشر بأن سيكون فى هذه الأمة نبى !

ثم استطردت تقول بعد صمت قصير :

ــ كأنى نسيت أن فاطمة بنت مر ، قرأت الكتب كذلك ، وهى بعد كاهنة خثعم ؟ (١)

فرنا « عبد الله » الى عروسه مليا ثم هتف :

ــ ترين يا آمنة أننا ..

فلم تدعه « آمنة » يكمل عبارته ، واستغرقت فى رؤيا عجيبة ملهمة استعادت فيها كلَّ الذى كانت الجزيرة تمتلىء به من شائعات وارهاصات

(١) تاريخ الطبرى : ١٧٤/٢ والنهاية لابن الاثير : ٤/٢

عن نبى منتظر !

ونامت ليلتها ، وما تكف هذه الرؤيا عن التجلى لها ، و « عبد الله » الى جانبها ساهر يقظان ، يرقب فى نور الفجر الوليد تلك الابتسامة الرقيقة التى يتألق بها وجهها الحلو ، وهى نائمة تحلم

حتى اذا دنا الصبح ، استيقظت العروس من نومها الهنىء وأقبلت على زوجها تحدثه عن رؤياها :

رأت كأن شعاعا من النور ينبثق من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا من حولها حتى لكأنها ترى به قصور بصرى من أرض الشام . وسمعت هاتفا يهتف بها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة .. » (١)

***

وبقى « عبد الله » مع عروسه أياما لم يحدد لنا التاريخ عددها ، ولكنها عند جمهرة مؤرخى الاسلام ، لم تتجاوز عشرة أيام ، اذ كان عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة الى غزة والشام فى عير قريش .

وأغلب الظن أن كلام « بنت نوفل » عن النور الذى فارق عبد الله الى « آمنة » قد شغل أويقات السمر فى تلك الأمسيات المعدودات التى قضاها العروسان معا قبل أن يفترقا ، وأن الرؤى قد حلقت بهما فى آفاق عليا ، خايلتهما فيها أمنية عزيزة غالية ، قلَّ من شارفها أو طمح اليها

ولعلهما تذكرا أيضا خبر « سوداء بنت زهرة الكلابية » اذ وُلدت ورآها أبوها زرقاء فأراد وأدَها ، فأتى الحجونَ ليدفنها هنالك ، فلما حفر لها الحافرُ سمع هاتفا يقول :

« لا تئد الصبية ، وخلّها فى البرية » ..

وتكرر ذلك ، فعاد الى أبيها فقال : « ان لها لشأنا » وتركها . فكانت كاهنةَ قريش . فقالت يوما لبنى زهرة : ان فيكم نذيرة أو تلد نذيرا ، فاعرضوا علىَّ بناتكم . ففعلوا ، فقالت : لكل واحدةٍ قولا ظهر بعد حين ، حتى عُرِضتْ عليها آمنةُ فقالت : هذه النذيرة ، أو تلد نذيرا (٢)

---

(١) السيرة لابن هشام : ١/٦٦

(٢) الروض الانف للسهيلى : ١/٤١

الفصل الرابع

العروس الأرملة

- فراق ...
- غائب لا يئوب ...
- رسول الى يثرب ..

فراق

ثم حانت ساعة الفراق !

ودّع « عبد الله » زوجه العروس حين أذن المؤذن برحيل القافلة ، فتشبثت به « آمنة » وقد أحست كآبة غامرة شحب لها وجهها وارتعد كيانها ، فربت « عبد الله » على يدها اللطيفة فى حنو ، وهو يظن أن الذى بها لايعدو أن يكون وحشة الفراق الوشيك ..

ثم انتزع نفسه منها انتزاعا ، ووقف فى فناء الدار يقول لها وهو يتكلف التصبر ويتجمل بالمداراة :

ـ ان هى الا بضعة أسابيع ، ثم أعود اليك يا آمنة على جناح الشوق واللهفة ..

فهمست فى صوت شبيه مختنق :

ـ وماذا أصنع بنفسى وأنت بعيد ؟

أجاب متضاحكا :

ـ تسامرين طيفى الذى لن يبرح مطيفا بك محوما عليك ، وترعَين قلبى الذى أدعه هنا وأسافر بجسم ينزع أبدا الى أعز موضع ، ويحن الى أحب وأجمل مَن خلق الله !

فتراخت يداها وأنّت فى ضعف :

ـ ويلى يا عبد الله من ليالىَّ الطوال !

قال وهو يخطو نحو باب البيت ، ووجهه اليها :

ـ لا ويل لك يا آمنة ! ستشاغلك طوال لياليك رؤى عِذاب . أفنسيت حديث « بنت نوفل ، وفاطمة بنت مر » ورؤيا الأمس القريب ؟

واذ بلغ الباب ، انفلت مسرعا قبل أن تخونه شجاعته وتغلبه عواطفه ،

على حين بقيت « آمنة » حيث كانت ، واقفة بباب مخدعها الموحش ...

وأدركتها بعد ساعة ، جاريتها « بركة أم أيمن » فقادتها برفق الى فراشها ، ثم جلست الى جانبها ترعاها مشفقة عليها مما تلاقى ..

***

ومرت أيام وليال ، و « آمنة » فى فراشها لاتبرحه ، تسامر أشجانها وترسل قلبها فى أثر الحبيب الراحل . وقد حاول أهلها ، كما حاول « عبد المطلب » أن يصرفوها عن وحدتها حرصا على صحتها ، لكنها آثرت العزلة على الأنس بالأهل والصواحب ، بل لعلها كرهت أن يفسد أحد عليها هذه العزلة لما كانت تجده فى مسامرة طيف الغائب ، من شجن ولذة

ومضى شهر لا جديد فيه سوى أن « آمنة » شعرت بالبادرة الأولى للحمل ، وكان شعورها به رقيقا لطيفا حتى لتقول :

« ما شعرت أنى حامل به ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء ، الا أنى أنكرت رفع حيضتى . على أنها كانت ربما ترفعنى وتعود . فأتانى آت وأنا بين النوم واليقظة فقال : هل شعرت أنك حملت ؟ فكأنى أقول : ما أدرى . فقال : انك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها . وذلك يوم الاثنين. فكان ذلك مما يقن عندى الحمل » (١)

وودت لو طارت بالبشرى الى « عبد الله »

واستعادت بعض حيويتها واشراقها ، وقد هون عليها مرارة الفراق أن أكثر أيامه قد تصرمت ، وأن كل يوم يدنيها من اللقاء المنتظر ، ويزيدها يقينا من الحادث السعيد الذى ترجو أن تلقى به زوجها فى اللحظة التى يؤوب فيها !

وأهل الشهر الثانى أو مضت قطعة منه ، وآن للقافلة أن تعود ،

---

(١) شرح المواهب للزرقانى : ١/١٠٦
وقد اختلفت الروايات فى المكان الذى حملت فيه آمنة بسيد البشر ، ففى قول انها حملت به فى شعب أبى طالب « نهاية الارب : ٦٤/٢٦ » وفى قول آخر أنها حملت به فى بيت آلها بنى زهرة « الاستيعاب لابن عبد البر : ١/١٦ »

فتهيأت « آمنة » للقاء وشيك ، وراحت تعد ما بقى من أيام وليال ، وتتمثل زوجها وقد عاد اليها متلهفا يحدثها عما لقى فى بعدها من حر الشوق ولهفة الحنين . ولكن هل تراها تستطيع أن تصبر فلا تفاجئه ببشراها ؟ أم هل تراها قادرة على أن تكتم عنه ما تراءى لها من أحلام اليقظة ورؤى المنام ، ريثما تستمتع بحديثه العذب ؟

بهذا شغلت « آمنة » فى الفترة التى سبقت عودة القافلة ، حتى اذا لاحت طلائعها ، وقفت فى ساحة الدار مما يلى الباب الخارجى ، تنتظر أن يفتح بين آونة وأخرى ، وتشرق منه طلعة الحبيب ..

وطال بها الانتظار حتى ساورتها شكوك مبهمة وخوف طارىء ، فتنبهت فجأة الى غيبة جاريتها « أم أيمن » وكانت قد ذهبت منذ شاع خبر قدوم المسافرين ، كى تعود فتبشر سيدتها على عجل بأنها رأت « عبد الله » رأى العين ، وتصف لها حاله بعد غيبة طالت !

وتناهى الى أذنيها ضجيج اللقاء فى الدور المتاخمة لدارها ، فأين عبد الله ؟ ما الذى أمسكه عنها فلم يخف اليها طائرا ؟

لعله لقى — فى طوافه بالكعبة اثر عودته — من احتجزه حينا ..

أو لعل أباه الشيخ آت فى صحبته ، فما يستطيع عبد الله الا أن يمشى على مهل ، رعاية لسن أبيه ..

أو لعل .. ولعل ...

رسول إلى يثرب

ثم .. أحست خطوات وانية تدنو من الدار ، فتعلقت عيناها بالباب وهى لاتكاد تتماسك من انفعــال ، حتى اذا فتح الباب بعد لحظة طالت كأنها دهر ، خذلتها قدماها ، فتسمرت حيث هى ، واجمة خائفة !

لم يكن « عبد الله » هو القادم ، وانما جاء الجد « عبد المطلب » فى صحبة أبيها « وهب » ونفر من الأهل الأقربين ، وقد غشيت وجوههم جميعا غاشية من القلق

وكانت « أم أيمن » تمشى فى أثرهم متخاذلة مطرقة ، تحاول أن تخفى دمعة أفلتت من مقلتيها ..

وقال « وهب » وهو يتحاشى النظر الى وجه ابنته :

ــ بعض الشجاعة يا آمنة ، فما فى الأمر مايدعو الى مثل ذلك الجزع الأليم . لقد عادت القافلة وكنا فى انتظارها بالحرم ، فلما افتقدنا « عبد الله » أخبرنا رفاقه أن وعكة طارئة ألمت به وهو فى طريقه الينا ، وعما قريب يبرأ ويعود سالما اليك والى مكة وقريش ..

وانحلت عقدة ربطت لسان « عبد المطلب » فعقب قائلا :

ــ هو ذاك يا آمنة .. وعكة بسيطة ولا شىء أكثر ، وقد قال الرفاق : « خلفناه بيثرب عنــد أخواله من بنى النجار » فبعثت اليه أخــاه الحارث (١) ، كى يكون معه ، ويصحبه فى طريقه الينــا ، فثوبى الى صبرك وادعى له ...

قالت فى ضعف وتخاذل :

ــ أفعل ياعم !

وانصرفت من فورها الى الابتهال والدعاء ، فلم تكد تشـــعر بالقوم

(١) هذه رواية ابن اسحاق فى السيرة ،والذى فىالنهاية لابن الاثير (٣/٢) ان الاخالذى توجه الى يثرب كان الزبير ، لا الحارث

حولها ، حتى غادروها الى الكعبة ضارعين ...

***

وأتم الشهر الثاني دورته ، و « آمنة » على حالها تجاهد ما استطاعت أن تذود عن قلبها اليأس ، فاذا عز عليها ذلك لاذت بالدعاء ، لعل الله يرد عليها ذاك الغائب الذى افتُدِى بالأمس أغلى فداء ..

وكانت تعاودها — فى لحظات نومها القصيرة — رؤيا مثلجة ، عن جنين عظيم تطويه أحشاؤها ، وتسمع الهاتف بأجمل بشرى .. ، فاذا آبت الى يقظتها شق عليها ألا تجد « عبد الله » بجانبها ، تفضى اليه بالذى ترى وتسمع ...

غائب لا يئوب!

بعد حين ...

عاد « الحارث بن عبد المطلب » وحده ..

عاد لينعى أخاه الشاب ، الى أبيه الشيخ ، وزوجه العروس ، والقرشيين جميعا ..

لقد غاله الموت وهو بين أخواله من بنى النجار ، اثر رحيل القافلة التى تخلف عنها ..

ودفن هناك — على أرجح الأقوال — ولم يقبل فيه هذه المرة أى فداء !

***

ووجمت « آمنة » للخبر ، وقست عيناها فما تسعفانها ببكاء ..

وأعفاها ذهولها من الانهيار والتصدع ، فلبثت أياما لاتكاد تصدق النعى ، حتى اذا تيقنت من الكارثة ، فاضت عبراتها ، وقيل انها رددت فى لوعة : (١)

عفا جانبُ البطحاء من زينِ هاشم
وجاور لحدا خارجا فى الغماغم

دعتْه المنايا دعوة فأجابها
وما تركتْ فى الناس مثلَ ابن هاشم

عشيةَ راحوا يحملون سريره
تعاوَرَه أصحابهُ فى التزاحم

فان تكُ غالتْه المنونُ وريبُها
فقد كان معطاءً كثيرَ التراحم

ثم أمسكت لاتزيد ..

---

(١) السهيلى : الروض الانف ، ١٠٧/١ — والزرقانى ، المواهب : ٢١٠/١ — والنويرى ، نهاية الارب : ٦٦/١٦

ووجد عليه « عبد المطلب » واخوته وأخواته وجدا شديدا (١)
ولبست « مكة » كلها ثوب الحداد على فتاها الذى غالته المنون غريبا ولما ينزع عنه ثوب العرس .
وضحلت من النواح عليه حلوق بُححَّت من الهتاف له حين احتفلت بفدائه منذ شهرين وأيام ..
كان عمره اذ ذاك ، ثمانية عشر عاما (٢) ، فيا للشباب الفتى النضير يهتصره الموت اثر فرحة الفداء !
ويا للعروس الشابة ، تترمل هكذا سراعا ، وما يزال فى يديها خضاب العرس !

---

(١) النويرى : ٦٦/١٦
(٢) هذا هو المشهور . ونقل ابن سعد فى طبقاته عن الواقدى ان سنه كانت يوم وفاته خمسا وعشرين سنة . وانظر نهاية الارب : ٦٦/١٦ والحاوى للفتاوى : ق ٢/ ٢٣٠

الفصل الخامس

أم اليتيم

- الجنين ..
- الوليد ..
- الرضيع ..

الجنين

ما مضت فترة من الرسل الا
بشرت قومها بك الانبيــــاء
فهنيئا به لآمنة الفضـــــــــ
ــــل الذى شرفت به حــواء
من لحواء انهـــا حملت احمـ
ـــــد او انهــــا به نفساء

(البوصيرى)

وفض المأتم ..

لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيدا بيثرب ..

كانوا فى حيرة من أمره :

ما دام الله قد كتب عليه الموت هكذا سريعا ، ففيم كان الفداء ؟

من كان يظن ، حين نُحرت الابل المائة بالحرم ، وتُركت لا يُصَدّ عنها انسان ولا سبع ، أن المنايا واقفة بالمرصاد للذبيح المفتدى ، على قيــد خطوات معدودات ؟

وفى مثل هذا ، كانت « آمنة » تفكر ، وهى فى وحدتها تجتر أحزانها ، وتكابد الذى تجد من وطأة المصاب ، حتى خيف عليها الهلاك فتتابع أهلها يحاولون أن يعزوها ، وهى تأبى أن تقبل فى « عبد الله » عزاء ..

وناشدوها الصبرَ الجميل ، فأنكرت على نفسها الصبر ، ووجدت فيه جحودا وغدرا بالحبيب الذى رحل ..

وأوجس « آل هاشم وزهرة » فى نفوسهم خيفــة ، أن تشـــتد وطأة الحزن على « آمنة » فتذهب بها ، ولبثت « مكة » شهرا وبعض شهر ، وهى ترقب فى قلق ، الى أين تنتهى الأحزان بالأرملة العروس ..

حتى كانت ليلة من ليالى شوال ، أحاط فيهــا العواد بفراش « آمنة » وهى فى غمرة أحزانها لاتفتأ تسائل كل وافد من أهلها ووافدة :

— فيم كان فداؤه اذن ، مادام الله قد كتب عليه الموت العاجل ؟
— فيم كان العرس الحافل ، ويدُ القدَر تحفر له لحدَه بيثرب ؟

ثم أدركها الاعيــاء فأغفت مجهدة والعيون ترقبها فى حنان وقلق ، على أنها مالبثت أن صحت من غفوتها وقالت لمن حولها :

— كأنى عرفت سرَّ الذى كان : ان عبد الله لم يُفتد من الذبح عبثا ! لقد أمهله الله ريثما يودعنى هذا الجنين الذى أحسست به اللحظة يتقلب فى رحِمى ، والذى من أجله يجب أن أعيش ..

ومن تلك اللحظة الحاسمة ، أنزل الله سكينته على « آمنة » فطوت أحزانها فى أعماقها ، وبدأت تفكر فى ابنها الذى يحيا بها ويحييها ..

***

ولا أستطيع أن أنتقل الى الحديث عن أمومة « آمنة » قبل أن أتمهل عند اختلاف الروايات فى وفاة « عبد الله » :

هل كانت والابن جنين فى رحم أمه ؟

أو كانت بعد أن وضعته ؟

لا مراء فى أن المصطفى يتيم ، بنص آية الضــحى : « ألم يجــدك يتيما فآوى » والمشهور ، أنه — صلى الله عليه وسلم — ولد يتيما . وقد اكتفى بهذا « ابن اسحاق » دون أن يشير الى أى خلاف فيه . قال :

« .. ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب ، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به » (١)

ونقل « ابن هشام » عبارة ابن اسحاق هذه ، من غير أن يضيف اليها أو يعلق عليها بما يشعر أن القوم على عهده اختلفوا فى هذا ..

ونقل « ابن الأثير » فى (الكامل) أن « الزهرى » قال :

« أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله الى المدينة يمتار لهم فمات بها ، وقيل بل كان فى الشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض ، فتوفى

---

(١) السيرة : ١/١٦٧

بها .. قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم »

كما نقل فى موضع آخر أن « أبا طالب » قال للراهب « بَحيرا » عندما سأله عن محمد : « انه ابن أخى ، مات أبوه وأمه حبلى به » (١)

وفى نهاية الأرب : « فذهب أخوه الحارث الى يثرب فوجده قد توفى ودفن .. ورسول الله صلى الله عليه وسلم حمل » (٢)

لكن « السهيلى » نقل فى (الروض الأنف) : أن « أكثر العلماء أجمعوا على أن عبد الله مات والرسول فى المهد : قيل ابن شهرين ، وقيل أكثر من ذلك .. وقيل مات أبوه وهو ابن ثمان وعشرين شهرا » (٣)

ونقل ناشرو (السيرة) بالهامش عبارة « السهيلى » هذه ، دون وقوف عندها ، أو تعليق عليها ..

وأشار « البرزنجى » الى الخلاف اشارة عابرة فقال :

« ولما تم لحمله شهران على مشهور الأقوال المروية ، توفى بالمدينة المنورة أبوه عبد الله ، وكان قد اجتاز بأخواله فى مرضه عائدا من الشام » (٤)

وعلق « عليش » على هذا فى شرحه للمولد ، فذكر من الأقوال المروية التى أشار اليها البرزنجى : أن أبا الرسول توفى وهو ابن سبعة أشهر ، وقيل ابن ثمانية وعشرين شهرا ..

***

وندع هؤلاء المحدِّثين ، فنجد عند أكثرهم اطمئنانا الى رواية من قالوا ان عبد الله توفى وابنه جنين . قال بودلى :

« وكان عبد الله بن عبد المطلب أحب أبنائه اليه ، وكان من المرجح أن يرث مركز أبيه وماله ، لكن الموت لم يمهله ، فقد خطفه فى يثرب وهو فى رحلة تجارية ، عقب زواجه من « آمنة » ولم يقدر له أن ينعم برؤية ابنه

(١) الكامل : ١٣/٢
(٢) للنويرى : ٦٦/٦
(٣) الروض الانف : ١٠٧/١ — وانظر نهاية الارب : ٦٦/١٦
(٤) المولد النبوى : ص ١٢

الذى رأى النور فى أغسطس سنة ٥٧٠ م ، بعد وفاته بشهور » (١)

و « فيليب حتى » يذكر موت عبد الله قبل مولد ابنه ، ثم لايشير الى خلاف فى ذلك (٢)

وتحدث « الدكتور هيكل » مطمئنا غير مرتاب ، عن سفر عبد الله الى الشام فى رحلته الأخيرة ، تاركا « آمنة » حاملا ، وقد تقدمت بها أشهر الحمل من بعده حتى وضعت فبعثت الى عبد المطلب عند الكعبة ، تخبره أنه ولد له غلام (٣) ..

وكأنى فهمت من أستاذنا أمين الخولى أنه يميل الى الرواية القائلة بأن محمدا ولد قبل أن يموت أبوه ، مستأنسا بما يطمئن اليه علم النفس من صلة الجنين بأمه ، وأثر حالتها المعنوية على كيانه كله : جسما وخلقا وأعصابا . وحياة « محمد » — صلى الله عليه وسلم — تشهد بسلامة بنائه وصحة أعصابه ، فلقد خاض معارك تكفى واحدة منها لامتحان أصلب الرجال عودا وأثبتهم جنانا وأجلدهم أعصابا ، فكان فيها جميعا البطل الباسل ، وهذا قد يرجح أن أمه لم تروع وهى حامل بموت زوجها بل أمضت أشهرَ الحمل آمنةً مطمئنة هادئة ، لا يئودها حزن ولا يمضها ثكل ولا يرهقها شجن ..

لكن هذا الترجيح يُواجَه بموقف أعلام الطبقة الأولى من كتاب السيرة ، ومن الإخباريين والمؤرخين ، لا يشيرون الى خلاف فى أنه صلى الله عليه وسلم ولد يتيما : « ألم يجدك يتيما فآوى » وانما جاءت الاشارة الى خلاف ، عند قلة من المتأخرين . ولا يشق علينا توجيه الرواية المشهورة ، بوفاة أبيه وهو جنين ، الى مايهيىء الراحة النفسية للأم الحامل ، رغم حزنها الثقيل وترملها المبكر المفجع : الجنين نفسه ، كان عاملا هاما فى عزائها ، وشعورها به يتقلب بين أحشائها قد

---

(١) الرسول : ص ٢٨ من الترجمة العربية للسحار .
(٢) تاريخ العرب : ص ١٣٥ ط ثانية من الترجمة العربية
(٣) حياة محمد : ٦٩

آنس وحشة وحدتها وكآبة ترملها ، وهون عليها ماكانت تجد من حزن لعله كان بحيث يتلفها ، لو لم ينزل الله سكينته عليها ، ويملأ دنياها بهذا التراث الحى الغالى الذى أودعها اياه زوجها عبد الله قبل أن يموت ، فعاشت به وله .

***

تسامعت بيوت « مكة » بالنبأ السعيد ، فتوافدت عقائل « قريش » على دار الفقيد ، يهنئن « آمنة » ويصغين الى ماسمعت من بشرى ..

وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبى منتظر تقارب زمانه ، يتحدث بها الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهان من العرب (١) .

وإذا كان هناك من العرب من لم يلق بالا — أول الأمر — الى هذا الذى ذاع وانتشر ، فان « آمنة » ألقت كل بالها الى تلك المبشرات فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون شبان قريش ورجالها بمجد الفداء الذى لم يحدث منذ افتدى اسماعيل ، جد العرب العدنانية ..

ولا غاب عن مسمعها صدى ما ذكرته أخت ورقة بن نوفل ، وفاطمة بنت مر — وقد كانت فيما روى الطبرى وابن الأثير كاهنة من خثعم — عن النور الذى انتقل من « عبد الله » اثر زواجه ، والغرة التى ذهبت بها « بنت وهب » فلم تدع لغيرها من النساء فى « عبد الله » مأربا ..

ثم هى قبل هذا كله ، سيدة من صميم البيئة الرفيعة الحاكمة فى مكة ، ومن شأن سيدات هذه البيئة ، أن يرنون الى بعيد ، وأن يرجون للأجنة فى بطونهن مجدا لم يسبق اليه أحد ..

***

وكثير من المؤرخين المسلمين ، نقلوا عمن لا يتهمون من الرواة ، ما تراءى « لآمنة » فى أحلامها من بشرى بابن عظيم ، وان يكن « الدكتور هيكل » قد مر بها عابرا دون أن يشير اليها ، مكتفيا بقوله :

---

(١) من شاء ان يقرأ تفصيل ذلك : فليقرأ الفصل الخاص بذكر المبشرات برسول الله ، فى الجزء السادس عشر من نهاية الارب ،وفى الجزء الاول من السيرة لابن هشام : ص ١٢٧ وما بعدها

« وتقدمت بآمنة أشهر الحمل حتى وضعت كما تضع كل أنثى » (١)

وأكثر المستشرقين ، يأبون روايات البشرى اباء صريحا . حتى «بودلى» وهو من أكثرهم انصافا واعجابا بالرسول ، رفض أن يقبل الذى قيل فى رؤى « آمنة » عندما حملت بمن صار نبيا . قال فى كتابه (الرسول) :

« لا توجد أسرار تحيط بمولد النبى ، اذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل : فما كان هناك بشائر على أنه المصطفى من الله ، ولا زارت الملائكة أمه قبل مولده ، ولا بشرتها بقدومه .. وانما حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » (٢)

وانى ليدهشنى أن يصدر مثل هذا الحكم من دارس مثله ، أعرف فيه الاعتدال واتزان الرأى . لقد قرر أن محمدا « حملته أمه ووضعته كما تحمل كل أنثى وتضع » فما باله ينكر عليها مايجوز على كل أنثى من البشر ، تحمل وتضع فى مثل ظروف « آمنة » ؟

لماذا يسمى ما روى عن أحلامها ورؤاها « خرافات لايقبلها عقل » ؟

أو ليس من حقها ــ ككل أنثى مثلها ــ أن تحلم للجنين الذى يتقلب فى رحمها ، بمجد تستشرف إليه ظروفها وبيئتها ؟

لو أن « بودلى » استفتى علماء النفس ، لأنكروا عليه أن يسمى رؤى « آمنة » خرافات ! وانما الخرافة حقا أن نجردها من بشريتها وأمانى أمومتها ، فما من أنثى تحمل ، الا حلمت لجنينها بأقصى ما تطمح اليه ظروفها ، وقد كانت بيئة « آمنة » مانعرف عزا وشرفا وعراقة وحسبا ، كما حفت بزوجها « عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » ظروف فريدة لم يشاركه فيها سواه ، فأى عجب فى أن تبعد بآمنة رؤاها فتسمع من يبشرها بأنها ستلد « سيد هذه الأمة » ؟

أو ليست أحق بهذا من « هند بنت عتبة » التى ردت على من بشرها بأن ابنها سيسود قومه ، بقولها : ثكلته أمه ان لم يسد الا قومه ؟ (٣)

(١) حياة محمد : ص ٦٩

(٢) الرسول : ص ٢٥ من ترجمة السحار

(٣) راجع عيون الاخبار لابن قتيبة : ٢٢٤/١

فلنذكرهم أن « آمنة » فى هذا كله ، هى حواء فى كل زمان ومكان .. دون أن نكرههم على تصديق ما تناقله رواة العرب من أخبار عما سمعت المنجبات العربيات من هواتف البشرى بالمجد المنتظر للاجنّة فى أرحامهن كمثل ما رووا عن « ليلى بنت مهلهل » هتف بها الهاتف حين حملت بابنها « عمرو بن كلثوم » :

يالك ليلى من ولَدْ
يُقدم اقدامَ الأسد
من جشم فيه العدد
أقول قولا ، لا فند

فلما استكمل وليدها سنة أتاها ذلك الهاتف ليلا فقال :

انى زعيمٌ لك أمَّ عمرو
بماجدِ الجد كريم النجر
أشجع من ذى لبَدٍ هزَبْر
يسودهم فى خمسة وعشر

قالوا : فساد قومَه ولم يجاوز خمس عشرة سنة ..

وكذلك رووا أن أم « حاتم الطائى » أتاها الهاتف حين حملت بابنها فسألها :

ــ أغلام سمح يقال له حاتم أحب اليك ، أم عشرة غلمة كالناس ..؟

فأجابت : بل حاتم !

و « خبيئة بنت رباح الغنوية » ، حدثوا أن هاتفا هتف بها فى منامها ذات ليلة :

ــ أعشرة هدَرة ــ جمع هادر وهو الساقط ــ أحب اليك ، أم ثلاثة كالعشرة ؟

وعاودها ثانية ، فقصت رؤياها على زوجها فقال لها :

ــ ان عاد الثالثةَ فقولى : ثلاثة كعشرة

ففعلت ، وولدت : خالدا ، ومالكا ، وربيعة ، وعُدَّت بهم احــدى منجبات العرب .

وكنت بحيث أقول للمستشرق « بودلى » :

ــ انك قد اتخذت من كتاب السيرة والمؤرخين الاسلاميين الأول ، مرجعك فى كتابك عن « الرسول » ، وزدت فاعتمدت أقوال العرب الذين عاشوا ويعيشون اليوم فى الجزيرة حيث عاش الرسول ، وكانت حجتك : « أنهم لا يتحدثون عن محمد كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد أبدا ، لقد كان راعيا ، ارتدى نفس الثيــاب التى يلبسونها ، وامتطى ابلا كمــا يفعلون ، وكان التمر الذى عاش عليه يشابه تمرهم . انهم ليشاركونه فى كل مافعله فهو بالنسبة لهم حى كفرد منهم ..

« لذلك كانت اســتعادة ذلك المشــهد الذى مر عليه ثلاثة عشر قرنا بالنسبة لى ، أيسر من وصــف جامعى فى أكســفورد ، الحياةَ فى عصر اليزابيث ، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكى عن الولايات المتحــدة قبــل حرب الاستقلال ..

« عاش أناس كثيرون من أصحاب محمد بعده ، فرووا ذكرياتهم عنه لذرياتهم ..

« انى أعرف العرب عن كثب ، وانى أحبهم ، وقد عشت فى خيــامهم وأحببتها . وأظن أنى أستطيــع أن أفكر كما يفكر محمد ، وأحس كما يحس ، وأفهم على التحقيق مشكلاته »

فما بالك بعد هذا تنكر اجماع كتَّاب السيرة على ما رأت « آمنة » من بشائر بمولد ذاك الذى كانت الجزيرة ملأى بالارهاصات عن قرب مولده ؟

أجل ، كنت بحيث أقول هذا ومثله ، لكنى أكتفى بأن أقول لكل من أنكروا على « بنت وهب » أحلامها ورؤاها : ان الحوامل قبلها وبعدها ، والى يوم تنتهى الحياة على هذه الأرض ، قد عرفن ويعرفن وسيعرفن الهواتف والرؤى والأحلام ..

والحق أنى لا أستطيع أن أنكر من ذلك كله شيئا ، فمبلغ الأمر فيه أنه حالة تعرفهـا كل أنثى من البشر عانت تجربة الحمل ، واشتهت أن يبلغ ولدها من المجد ما يسبق به قرناءه ورفاقه ، وانما يختلف مدى الطموح ومجـال الأحـلام ، على قـدر ما تسعف عليه ظروف كل أم ، وتحتمله بيئتها ، ويمتد اليه أفقها !

وهذه « آمنة » بنت سيد بنى زهرة ، وُلدت فى جوار البيت العتيق من أم القرى ، بكل حرمتها الدينية ، وكل مالها من تراث عريق يحف به السنى والجلال . وتزوجها « عبد الله بن عبد المطلب » اثر افتدائه من النحر على نحو يذكر بجده الأعلى اسماعيل ، وهى يومئذ ــ كما يقول ابن اسحاق ، شيخ كتاب السيرة ــ أفضل فتاة فى قريش نسبا وموضعا ..

وسمعت « آمنة » ما سمعت من تعرض النساء لزوجها ثم صدّهن عنه لما تزوج بها فذهبت دونهن بالنور الذى رأينه على وجهه . وليكن ذلك ــ فى أدنى حالاته ــ وهما منهن أو تخيلا ، أفلا يؤثر فيها ذاك الوهم حين تحمل جنينها الأول : حفيدَ المنافَين (١) ، وسليل البيت الهاشمى وآل زهرة ؟

أفكثير على مثلها أن تحلم ، وأن ترجو لوليدها المنتظر أقصى ما يرنو اليه طموحها ، ويمتد اليها أملها ، وأن ترى حين حملت به كأنما خرج منها نور ، على ماتواترت به الأنباء الصحيحة ، كنص عبارة ابن اسحاق ؟ (٢)

***

---

(١) المنافان هما : عبد مناف بن قصى بن كلاب ، الجد الثالث للرسول صلى الله عليه وسلم من ناحية ابيه ، وعبد مناف بن زهرة بن كلاب : جد أمه « امنة بنت وهب »

(٢) السيرة : ١٦٦/١ . وانظر نهاية الارب : ٦٤/١٦

ولنعد الى « آمنة » حيث تركناها فى دارها بعد أن غاب عنها « عبدالله » الى غير مآب ، وخلفها فى حزن قاس ، لم تخفف وطأته عليها الا حركة الجنين فى رحمها ..

حتى اذا أوشك أن يتم أجله ، جاءها « عبد المطلب » ذات أصـيل ، يطلب اليهـا أن تتهيأ للخـروج من مكة مع قريش ، حيث رأى لهم ان يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفا من معرة الجيش الذى جاء به « أبرهة الحبشى » من اليمن ..

وكانت « آمنة » قد سمعت بقـدوم « أبرهة » هذا فى جيش لجب ، لكنها لم تقدر أن الأمر قد بلغ من الخطر حدا يدفع قريشا الى الخروج من بلدهم الأمين ..

وسألت « آمنة » الجدّ عبد المطلب :

ـ علمتُ ياعم أن قريشا وكنانة وهذيلا ومن بالحرم من سائر الناس ، قد أجمعوا على قتال الطاغية ، فما الذى جَدّ على الموقف حتى يتركوا الكعبة لا يقاتلون عنها ؟

أجاب :

ـ عرفوا ألا طاقة لهم بأبرهة ، فكرهوا معركة غير متكافئة ، تهلك فيها قريش ، ثم تؤوب بعار الهزيمة ..

وسكتت « آمنة » برهة ، ثم تذكرت ما سمعت عن لقاءٍ كان بين شيخ مكة وطاغية الأحباش صاحب الفيل ، فعادت تسأل عما تم فى ذاك اللقاء ..

فأجابها الشيخ :

« أجل كان بيننا لقاء ، سعى اليه أبرهة ولم أسع اليه . ذلك أنه حين بلغ مشارف مكة ، بعث « حناطة الحميرى » وقال له :

« سل عن سـيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له ان الملك يقول لك : انى آت لحربكم ، انما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فان هو لم يرد حربى فائتنى به »

وجاءنى « حناطة » فأبلغنى رسالة « أبرهة » وتلقى جوابى :

« والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طـاقة ، هـذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله ابراهيم عليه السلام ، فان يمنعه فهو بيته وحرمه ، وان يخل بينه وبين أبرهة ، فوالله ما عندنا دفع عنه » (١)

قال حناطة :

ـ فانطلق معى ، فانه قد أمرنى أن آتيه بك ..

ففعلتُ ، ومعى بعض رجال مكة ، وهناك مضى بى الى أبرهة أحد رجاله فقال له :

« أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك ، وهو صاحب عير مكة ، وهو يطعم الناس فى السهل ، والوحوش فى رءوس الجبال» (٢)

فأكرمنى « أبرهة » عن أن أجلس دونه ، وكأنما كره فى الوقت نفسه أن ترانى الحبشة معه على سرير ملكه ، فنزل عن سريره وجلس على بساطه وأجلسنى الى جانبه ثم قال لترجمانه :

ـ قل له ماحاجتك ؟

فلما أجبت : حاجتى أن يرد علىَّ الملكُ مائتى بعير أصابها لى ..

بدا على الملك كأنما صغُرت فى عينيه ، فصدَّ عنى ، وقال لترجمانه فى جفوة :

ـ قل له : قد كنت أعجبتَنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى . أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك لا تكلمنى فيه ؟

قلت على الفور :

---

(١) ابن هشام : السيرة ١/٥٠.
(٢) ابن هشام : السيرة ١/٥١

ـ انى أنا رب الابل ، وان للبيت ربا يحميه .. (١)

قال الفاجر مدلا بقوته :

ـ ماكان ليمتنع منى !

فأجبته متحديا :

ـ أنت وذاك ..

وكان معى سيد هذيل ، فعرض على « أبرهة » ثلث أموال « تهامة » على أن يرجع ولا يهدم البيت، فأبى متكبرا واكتفى بأن أمر برد ابلى الى ..

وانصرفنا ، فحدثت قريشا بالخبر ، وأمرتهم بالخروج من مكة ، ثم قمت فأخذت بحلقة باب الكعبة ، وقام معى نفر من « قريش » يدعون الله ، ويستنصرونه على « أبرهة » وجنده ..

***

وأطرق « عبد المطلب » لحظة ، ثم رفع رأسه الى السماء وردد فى ضراعة أبياته التى قالها وهو آخذ بحلقة باب الكعبة : (٢)

لاهمّ ان العبـد يمنـع رحلَه فامنـع حلالَكْ
جروا جموعَ بلادهم والفيلَ كى يَسبوا عيالَك
ان كنت تاركهم وكعبتَنـا ، فأمرٌ ما بدا لك !

يارب لا أرجو لهم سواكا
يا رب فامنع منهم حمـاكا
ان عـدو البيت من عاداكا
امنعهمو أن يخربوا فنـاكا

فردّدت « آمنة » من بعده :

يا رب لا أرجو لهم سواكا

---

(١) الحوار بنصه عن ابن اسـحاق فى « السيرة ١/٥١ » وانظر معه تاريخ الطبرى ص ٩٤٠ من القسم الاول ط اوروبا

(٢) رواه الواقدى : ان كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

وانظر الابيات فى (السيرة : ١/٥٣) وفى (تاريخ الطبرى : ١/٩٤٠ ط اوروبا)

ثم ودعهـــا الشيخ وخرج ، على أن يبعث اليها فى غد من يصحبها فى خروجها لتلحق بالجمع الراحل ..

وخلت « آمنة » الى نفســها والى الجنين الغالى الذى تطوى عليــه أحشاءها ، فعز عليها أن تلده بعيدا عن البلد الحرام ، وفى غير دار أبيه « عبد الله » .

وكان هذا الخاطر بحيث يقلق مضجعها ويؤرق ليلتها ، لكنها أوت الى فراشــها وما يتخلى عنها ايمانها بأن الله مانع بيتـِه ، ومتى كان للطاغين والجبابرة على البلد الحرام سبيل ؟

ونامت مطمئنة ، حتى انبلج الصبح وقد قر عزمها على ألا تبرح مكانها من جوار الحرم ، الى أن يقضى الله أمره ..

وارتفعت شمس الضحى دون أن يأتى من قومها أحد ، ثم مضى النهار الا أقله وهى فى عجب : لمَ لم يبعث عبد المطلب رســوله اليها ؟ وفيم هذا الصمت المريب الذى يخيم على أحياء مكة كأنما قد أمسك كل حى فيها أنفاسه ؟

بل فيم ذلك الضجيج البعيد ، يتناهى اليها من أقصى الجنوب ، غامضا مختلطا مبهما لا تكاد تميزه : أهتاف هو ودعاء ، أم صراخ وعويل ؟

ألا ان وراء ذلك كله لأمرا ..

***

وظلت « آمنة » ترقب ، حتى اذا آذنت الشــمس بمغيب ، جاءتها الرسل من قومها تسعى ، لا لتطلب اليها أن تخرج الى شعف الجبال ، ولكن لتبشرها بالنجاة ..

ولم يبق فى « مكة » بعدئذ من لم يعرف الخبر :

حدثوا أن (١) « أبرهة » كان قد تهيأ لدخول البلد الحرام ، وهيأ فيله

(١) ارجع الى السيرة : ١/٥٤ ط الحلبى وتاريخ الطبرى : قســم أول ص ٩٤٠ ط. اوربا

وعبئى جيشه مجمعا لهدم البيت العتيق ، ثم الانصراف الى اليمن . فلما وجهوا الفيل من معسكره فى ظاهر البلدة من ناحية الجنوب ، برك وأبى أن يتحرك . فضربوه فى رأسه بآلة من حديد ، ثم أدخلوا محاجن لهم فى أسفل بطنه ، وهو بارك لايقوم . فوجهوه راجعا الى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه الى المشرق فتهيأ للانطلاق، ولما عادوا يوجهونه نحو مكة ، برك !

ثم كان أن سلط الله نقمته على أصحاب الفيل ، فانتشر فيهم فجأة وباء مهلك ، رمتهم بجراثيمه طير" أبابيل ، فجعلتهم كعصفٍ مأكول .. (٢)

هنالك أدركهم الذعر ، فولوا مدبرين يبتدرون الطريق الذى جاءوا ، ويسألون عن « نفيل بن حبيب الخثعمى » ــ وكان قد خرج لقتالهم حين مروا بأرض خثعم ، فلما أسره أبرهة ، افتدى نفسه بأن يكون دليل الحبشان بأرض العرب ــ فلا يكاد « نفيل » يسمع صياحهم وضراعتهم اليه أن يدلهم على الطريق الى اليمن ، حتى يرد بأعلى صوته : (١)

أين المفــر والإلهُ الطــالبْ ؟
والأشرم المغلوب ليس الغالب !

أو يقول : (٢)

وكل القوم يسأل عن نفيــــل
كأن علىَّ للحبشان دَينـــا !

قيل : « فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل ، وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة ! » (٣)

ولم تكن أرض العرب قد شهدت ــ فيما روى ابن اسحاق عن يعقوب ابن عتبة ــ الحصبة والجدرى قبل ذاك العام المشهود ..

---

(٢) فيهم نزلت سورة الفيل :
« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . الم يجعل كيدهم فى تضليل . وارسل عليهم طيرا ابابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول »
(١) السيرة : ٥٥/١
(٢) من قصيدة لنفيل ، روى ابن اسحاق منها ستة ابيات
(٣) السيرة : ٥/١

وأقبلت «قريش» على كعبتهـا المقدسـة تطيف بها حامدة شاكرة ، وتجاوبت أرجاء البلد الأمين بدعوات المصلين وأناشيد الشعراء :

فتنكلوا عن بطن مـكة انهـا
كانت قديمـا لا يرام حريمُهـا
سائلْ أمير الجيش عنها ما رأى
ولسوف ينبى الجاهلين عليمُهـا
ستون ألفا لم يئوبوا أرضَـهم
بل لم يعش بعد الاياب سـقيمها

***

وبلغت الأصداء مسمع « آمنة » فقامت تصلى وقد أشرق وجهها بنور اليقين والايمان ، وأحست غبطة غامرة ، أن استجاب الله لدعائها فلم يكتب لولدها ــ ابن عبد الله ــ أن يولد بعيدا عن البلد الحرام والبيت العتيق.

الوليد

ولد الهدى فالكائنـــات ضياء
وفم الزمان تبسم وثنـــــاء
الروح والملأ المـــــلائك حوله
للدين والدنيا به بشـــــراء
والعرش يزهو والحظيرة تزدهي
والمنتهى ، والسدرة العصماء

(شوقى)

ثم لم تك الا فترة قصيرة المدى بعـــد يوم الفيل ، حتى ذاعت بشرى المولد . حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما وهو الأكثر والأشهر ، على ما نقل « السهيلى » فى الروض الأنف (١)

وعن « ابن عباس » أن المولد كان يوم الفيل ، واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان فى عام الفيل (٢)

وكانت الرؤى قد عاودت « آمنة » فى صـــدر ليلة مقمرة من ليالى ربيع ، وسمعت من يهتف بها من جديد ، أنها توشك أن تضع سيد هذه الأمة ، ويأمرها أن تقول حين تضعه :

« أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد » ثم تسميه محمدا ..

وجاءها المخاض فى أوان السحر من ليلة الاثنين ، وهى وحيدة فى منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها — وقيل فى رواية أخرى أن « أم عثمان بن أبى العاص » كانت كذلك معها — فأحست مايشبه الخوف ، لكنها مالبثت أن شـــعرت بنور يغمر دنياها . ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنون عليها ، فحسبتهن من بنات هاشم ، وعجبت كيف علمن بأمرها وما أخبرت به من أحد ، غير أنهـــا أدركت على الفور أن هؤلاء

(١) وانظر الزرقانى ١٣٠/١ — والنويرى : ٦٨/١٦
(٢) السيرة ١٦٧/١

اللواتى حسبتهن من نساء البيت الهاشمى ، لسن سوى أطياف سارية ! فكأنما رأت فيهن « مريم ابنة عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وهاجر أم اسماعيل » !

وزايلها كل ماكانت تحسه من خوف ، فتجلدت للحظة الحاسمة ، وما كاد نور الفجر ينبثق ، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى من البشر !

***

وتوارت الأطياف النورانية السارية ، حين لم تعد « آمنة » وحدها ! كان ولدها الى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا ، ومضت ساعة وبعض ساعة ؛ وهى لا تفتأ ترنو الى طلعته البهية وكيانه اللطيف المشرق ، وتذكر به الحبيب الذى أودعها اياه ، ثم رحل ..

حتى اذا انبلج الصبح ، كان أول ما فعلته الوالدة أن أرسلت الى « عبد المطلب » تبشّره بمولد حفيده ، فأقبل مسرعا ، وانحنى فى حنو على الوليد ، يملأ منه عينيه ، وقد ألقى كلّ سمعه الى « آمنة » وهى تحدثه عما رأت وسمعت حين الوضع ..

ووعى كل ما قالت ، ثم حمل صغيره العزيز بين ذراعيه فى رفق ورقة ، وانطلق خارجا حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكر له أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد عبد الله .

وأحاط به بنوه فى خشوع وغبطة ، وهو يطوف بالكعبة ويعوّذ حفيده منشدا : (١)

الحمد لله الذى أعطانى
هذا الغلامَ الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، رواية عن الواقدى ، وانظر النويرى : ٧١/١٦ والروض الانف للسهيلى : جـ اول

أعيـــذه بالبيت ذى الأركان
حتى أراه بالغ البنيـــــان
أعيذه من شر ذى شـــنآن
من حاسد مضطرب العنـــان

ثم رده الى أمه ، وعاد لينحر الذبائح ويطعم أهل الحرم وسـباع الطير ووحش الفلاة .

وكانت مكة ـ حين ذاعت فيهـا بشرى المولد ـ ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من نصر على أصحاب الفيل ، فرأى القوم فى مولد «محمد» حينذاك ، آية تذكر بأخرى ، يوم اختير أبوه المنحر ، ثم افتدى بالابل المائة ..

وبلغ من غبطة البيت الهاشمى بالمولود العزيز ، أن « ثويبة الأسلمية » جارية عمه « عبد العزى بن عبـد المطلب » لم تكد توافى سيدها ببشرى المولد ، حتى أعتقها . ولو قد كشف له الحجاب عن الغد المغيب ، لروعته رؤية دوره المشئوم فى الحرب الدامية التى قدر لقريش أن تصلاها بعد أربعين عاما ، عندما جاءها وليدها الهاشمى اليتيم ، برسالة الإسلام . وباء عبد العزى بالكنية الملعونة : « أبى لهب » (١)

فيقال ان « العباس بن عبد المطلب » رأى أخاه « أبا لهب » بعد موته بسنة ، فسأله عن حاله ، فأجاب أبو لهب : فى النار ، الا أن العذاب خفف عنى كل ليلة اثنين ، بماء أمصه من بين اصبعىّ هاتين ، وذلك أنى أعتقت « ثويبة » حين بشرتنى بولادة النبى صلى الله عليه وسلم .

***

ولن يمضى وقت طويل ، حتى يقف التاريخ ليستعيد ذكرى تلك الليلة الخالدة على الدهر ؛ ويبدأ بها كتابة عصر جديد للعرب وللانسانية كلها ،

(١) نزل فيه قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب .. وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد » ..

وحتى تمتلىء الجزيرة بأخبار ومرويات عن اللحظة المباركة التى وضعت فيها « آمنة » ولدها . وتظل تلك المرويات تتناقل عبر الأجيال حتى تصل الينا ، وقد أضافت اليها الليالى والأيام جديدا من فيض الإلهام لرؤى المحبين وبصيرة المؤمنين ، ومن واقع التنفسير التاريخى لما قرر الإسلام من مصاير عقائد ولغات وحضارات ، ودُوَلٍ وشعوب ...

وكلما دار عام القمر دورته وأهل شهر ربيع الأول ، أصغى الزمان فى ذكرى تلك الليلة الميمونة ، الى هتاف الملايين من المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، يرتلون قصة « المولد » ويترنمون بما تمثله الوجدان المؤمن ، فى ضوء الواقع التاريخى :

« زيدت السماء حفظا ، ورُدَّ عنها المردةُ وذوو النفوس الشيطانية ، ورُجمت الجن وتدلّت اليه صلى الله عليه وسلم الأنجم الزهرية ، واستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه .

وخرج معه صلى الله عليه وسلم نورٌ أضاء قصورَ الشام القيصرية ، فرآها من بطاحِ مكةَ دارِه ومغناه .

وانصدع الايوان بالمدائن الكسروية ، الذى رفع أنو شروانَ سَمْكَه وسَوّاه .

وسقطت أربعٌ وعشرٌ من شرفاته العلوية ، وكُسر سرير الملِك كسرى لهولٍ ما أصابه وعَراه .

وخَمَدت النيرانُ المعبودة بالممالك الفارسية ، لطلوع بدرِه المنير ومُحَيّاه .. »

ويشدو المنشدون بقصائد الشعراء ، من وحى الذكرى الغراء لمولد ذلك اليتيم الخالد :

بكَ بشّر الله السماءَ فزينت
وتضوعت مسكاً بكَ الغبراءُ
يومٌ يتيهُ على الزمان صباحُه
ومساؤه بمحمد وضّاء

ذعِرتْ عروشُ الظالمين فزلزلت
وعَلتْ على تيجانهم أصداء
والنارُ خاويةُ الجوانب حولَهم
خمدت ذوائبُها وغاض الماء
والآىُ تترى ، والخوارقُ جمّةٌ
جبريلُ روّاح بها غدّاء ! (١)

***

وفى ضجيج الاحتفال بمولد « ابن عبد الله » ، لم تنس « قريش » أن تسأل شيخها « عبد المطلب » : لِمَ عدل عن أسماءِ آبائه وسمّى حفيده محمدا ؟

ذلك أن الاسم لم يكن ذائعا بين القوم ، ويقول « السهيلى » : « لا يُعرف فى العرب مَن تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الا ثلاثة ، طمع آباؤهم ـ حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، وبقرب زمانه ، وأنه يبعث فى الحجاز ـ أن يكون ولدا لهم .. وهم : محمد ابن سفيان بن مجاشع ـ جد الفرزدق الشاعر ـ ومحمد بن أحيحة بن الجلاح .. ومحمد بن حمران بن ربيعة . وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علِم من الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملا ، فنذر ان وُلِد له ذَكَرٌ أن يسميه محمدا .. » (٢)

ونقل البغدادى عن القاضى عياض :

« واما محمد ، فان الله تعالى حمى أن يسمى به أحد من العرب ، ولا من غيرهم ، الى أن شاع قبل وجوده وميلاده صلى الله عليه وسلم أن نبيا يبعث اسمه محمد ، قد قرب إبان مولده ، فسمّى قومٌ من العرب أبناءهم محمدا » (٣)

---

(١) من نبويات أمير الشعراء : أحمد شوقى (٢) الروض الانف : ١٠٦/١
(٣) النويرى : ٧٦/١٦

وقال أبو جعفر، محمد بن حبيب (١) : وهم ستة لاسابع لهم : محمد ابن سفيان بن مجاشع جد الفرزدق الشاعر ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن حسان الجعفى ، ومحمد بن مسلمة الانصارى ــ ولد بعد المصطفى وقبل المبعث ــ ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن خزاعى السلمى »

سألت « قريش » شيخها عن اسم حفيده ، فأجاب : أردت أن يكون محمودا فى الأرض وفى السماء ..

ويعلق « بودلى » على تلك الاجابة قائلا : « .. وأيا كان السبب ، فقد أصبح اسم الطفل محمدا ، وتسمَّى به ملايين الأطفال الذين ولدوا بعد الدين الجديد الذى قدر لابن آمنة من عبد الله ، أن ينشره على العالمين .. »

(١) خزانة الادب : ٢/٢٤

الرضيع

« ... فما منا امراة الا وقد عرض عليها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتاباه اذا قيل لها انه يتيم . وذلك انا انما كنا نرجو المعروف من ابى الصبى ، فكنا نقول : يتيم ؟! وما عسى أن تصنع امه وجده ؟

« فما بقيت امراة قدمت معى الا اخذت رضيعا غيرى ، فلما اجمعنا على الانطلاق ، قلت لصاحبى : والله انى لاكره أن ارجع من بين صواحبى ولم اخذ رضيعا ، والله لاذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه

قال : لا عليك انتفعلى ، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة .. »

(حليمة السعدية)

أحست « آمنة » بعد أن وضعت ولدها الوحيد ، أن الشطر الأهم من رسالتها قد انتهى بمولد ابنها الموعود بأعظم مجد ، كما انتهت رسالة « عبد الله » منذ أن أودعه جنينا فى أحشائها . فأسلمت نفسها من جديد لأشجان الذكرى ، الى حد أثّر فى صحتها ، وان لم يفض بها الى التلف او قريب منه ، ذلك أن جزءا من تلك الرسالة لم ينته بعد ، فما يزال عليها أن ترعى ولدها حتى يدرك ، فتحدثه عن أبيه ، ثم تصحبه الى يثرب ، حيث يزوران قبر فقيدهما الغالى ..

وأقبلت الأم على صغيرها ترضعه ريثما تفد المراضع من البادية فيذهبن به مع لداته من رضعاء قريش ، بعيدا عن جو مكة الخانق .

لكن لبن « آمنة » جف بعد أيام . فدفعت به الى « ثويبة » جارية عمه « عبد العزى » .

وكانت «ثويبة» قد أرضعت قبله عمه «حمزة بن عبدالمطلب» بلبن ابنها مسروح (1)

---

(1) السيرة الحلبية : ٨٥/١ والاستيعاب لابن عبد البر ٣٧٠/١ ط نهضة مصر

ثم لم تمض الا أيام معدودات ، حتى وفدت المراضع من بنى سعد بن بكر ، يعرضن خدماتهن على نساء الطبقة الموسرة من قريش ، فعُرض عليهن « محمد بن عبد الله » فزهّدهن فيه يتمه ، وأنه لم يك ذا ثراء عريض يكافىء نسبه الشريف ، فلقد مات « عبد الله » فى حياة أبيه « عبد المطلب » فلم يرث عنه مالا ، وأعجلته منيته فى مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه غنى ، ومن ثم لم يترك لولده الذى خرج الى الدنيا بعد موته ، سوى أمه ، وجاريته الحبشية « بركة أم أيمن » ، وخمسة أجمال أوراك — يعنى تأكل الأراك — وقطعة غنم (١)

وانها — كما يقول الدكتور هيكل — لثروة" ضئيلة لحفيد أمير مكة ، وسليلِ البيت الهاشمى القرشى العريق ..

وشقّ على « آمنة » أن ترى المراضع يوشكن أن يعدن الى البادية ، زاهدات فى ولدها الشريف اليتيم ، مؤثرات عليه أطفالَ الأحياء ممن يُرجى منهم الخير الوافر .

حتى إذا لم يبق أمل فى اقبال مرضع على اليتيم الهاشمى ، عادت احدى المراضع تطلبه بعد أن انصرفت عنه أول النهار . وقدمت نفسها الى أم اليتيم : « حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى ، زوج الحارث بن عبد العزى : أحد بنى سعد بن بكر بن هوزان »

وكان لهما من الولد ، الذين شرفوا بأخوة محمد من الرضاعة : عبد الله ، وأنيسة ، والشيماء التى كانت تحضن الرضيع المبارك مع أمها (٢) ..

ولندع « حليمة » تروى قصتها مع الرضيع اليتيم ، فيما نقل « ابن اسحق » شيخ كتاب السيرة ، عمن سمع « عبد الله بن جعفر بن أبى طالب » يقول :

---

(١) رواه ابن سعد عن الواقدى ، ونقله النويرى : ٦٧/١٦

(٢) الزرقانى : ١٤٦/١ — والنويرى :٨١/١٦ وابن هشام (١٧٠/١)

وجاء فى شرح المواهب ان لقبها « الشماء » بغير ياء . واختلفوا فى اسمها : ففى الاصابة والروض الالف انها « حذافة » وفى رواية بهما : « خدامة » وفى تاريخ الطبرى وطبقات ابن سعد : « جدامة »

« كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته ، تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لهـا صغير ترضعه ، فى نسوة من بنى سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء . قالت : وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا ، فخرجت على أتان لى قمراء — أى عجفاء — معنا شارف لنا — أى ناقة مسنة — والله ماتبض بقطرة ، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا ، من بكائه من الجوع ، وما فى ثديى ما يغنيه ، وما فى شارفنا ما يغذيه . ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك .. حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منـا امرأة الا وقد عرض عليها محمد — رسول الله صلى الله عليه وسلم — فتأباه اذا قيل لها إنه يتيم . وذلك أنا انما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول : يتيم ؟ .. وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ ..

« فما بقيت امرأة قدمت معى الا أخذت رضيعا ، غيرى ، فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى : والله انى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا . والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ..

« قال : لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ..

« فذهبت اليه فأخذته ، وما حملنى على أخذه الا أنى لم أجد غيره . فلما أخذته رجعت به الى رحلى ، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى الى شارفنا تلك فاذا هى حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا ، فبتنا بخير ليلة ..

« يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة !

« فقلت : والله انى لأرجو ذلك ..

« ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت محمدا عليها معى ، فوالله لقطعت

بالركب ما يقدر عليها شىء" من حمـُرهم ، حتى ان صواحبى ليقلن لى :
ـ يابنة أبى ذؤيب ، ويحك ! اربعى علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟

« فأقول لهن : بلى والله انها لهى هى !

« فيقلن : والله ان لها لشأنا ..

« ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمى تروح علىَّ ، حين قدمنا به معنا ، شباعاً لبناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب انسان غيرنا .. قطرة لبن ، ولا يجـدها فى ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

ـ ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب !

« فتروح أغنامـُهم جياعا ما تبضُّ بقطرةِ لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنـا . فلم نزل نتعـرفُ من الله الزيادةَ والخيرَ حتى مضت سـنتاه وفصلْتـُه » (١)

ونما الرضيع وترعرع فى صميم البادية ، بين قبيلة بنى سعد وهى من أعرق قبائل العرب وأفصحها ..

***

كيف أمضت الأم أيامها حين كان وحيدها بعيدا عنها مع أمه الأخرى « حليمة » فى بادية بنى سعد ؟ تسكت كتب السيرة فلا تحدثنا بشىء من ذلك ، وكأنما أحس الرواة والمؤرخون بالذى شعرت به « آمنة » من أن دورها الجليل قد أوشك على الانتهاء ..

على أنا لسنا بحاجة الى من ينبئنا أنها أقامت فى دار « عبد الله » تنتظر عودة ابنها ليعمر هذا البيت الذى أوحش من بعد رحيله ..

وهاجت الأحزانَ المطوية فى أعماقها ، وحدثتها الموحشة اثر ذهاب ابنها الى البادية ، فأرهقتها ارهاقا لم يكن لها عهد" بمثله ابّان حملها ،

(١) ابن هشام ، السيرة : ١٧١/١

وحين كان « محمد » معها ..

ولكن أوانَ فطامه كان يدنو رويدا ، وهذه هى تشغل عن أشجان ذكرياتها بانتظار الحبيب الحى ، وتُسلّى همّها بتمثله اذ يعود فيملأ دنياها أنسا ونورا

***

واستبطأت عودة «حليمة» بالرضيع . ولعلها همّت غير مرة بأن تبعث اليها من يسترجعه ما دام قد استكمل عامى رضاعته . لكن « حليمة » لم تلبث أن جاءت ومعها العزيز المنتظر ، فلم تكد أمه المشوقة تراه ، حتى التزمته معانقة ، وتشبثت به فى حضنها ، لا تريد أن تبعده عن قلبها الخافق ، ثم أرسلته بعد حين ، وجعلت ترنو اليه معجبة بما بدا عليه من علامات الصحة والنضرة والنمو ..

واذ أحست « حليمة » فرحة الأم بصحة الصبى العزيز ، راحت تحدثها عن جوّ مكة — وقد كان اذ ذاك مرهق الحر شديد الوطأة — و « آمنة » تلقى اليها بعض سمعها ، اذ كانت فى شغل بمناجاة الحبيب العائد ...

هنالك تشجعت « حليمة » وأفصحت عن مرادها قائلة :

— لو تركتِ بُنىَّ عندى حتى يغلظ ، فانى أخشى عليه وبأ مكة ! (١)

فأنكرت الأم ما سمعت ، ونظرت الى « حليمة » نظرة عتاب : كيف خطر لها أن « آمنة » تستطيع أن تفارق للمرة الثانية ، فلذة كبدها ونور عينيها وأنس دنياها ؟

لكن « حليمة » لم تيأس ولم تتراجع ، بل ألحت فى استصحاب الصبى ، متوسلة الى والدته بكل ما فى أمومتها من حنان وايثار ، مؤكدة لها أن من الخير لولدها أن يظل فترة أخرى بعيدا عن مكة ، وأن يعود معها فيمرح فى البادية !

وعادت الأم تنظر الى ابنها فتراه حقا قد أينع فى جو البادية النقى ،

(١) السيرة لابن هشام : ١/٢١٣

فتجلدت للموقف الصعب ، فى سبيل ماتعلم حقا أنه أنفع لولدها وأفضل .

وودعت « آمنة » ولدها للمرة الثانية ، وفى قلبها وحشة وشجن ..

وانطلقت به « حليمة » راجعةً الى مراعى بنى سعد ، والدنيا لا تكاد تسعها من فرط غبطتها وفرحها ، اذ كانت وقومها « شديدة الحرص على مُكثه فيهم ، لما رأوه من بركته » (١)

***

ثم لم تمض الا بضعة أشهر ، حتى عادت « حليمة » من تلقاء نفسها بالصبى المبارك الى أمه ، وهى بادية القلق ..

ولم تذهب فرحةُ اللقاء بعجب « آمنة » من تلك العودة السريعة ، فقالت تسأل « حليمة » :

ــ ما أقدمكِ به يا ظئرُ وقد كنتِ حريصةً عليه وعلى مُكثه عندك ؟

أجابت « حليمة » بعد تردد وتفكير :

ــ قد بلغ الله بابنى ، وقضيتُ الذى علىَّ ، وتخوّفت الأحداثَ عليه ، فأديته اليك كما تحبين (٢)

ولم يُقنع جوابُها هذا « آمنة » ، بل لم يذهب بشىء مما خامرها من ريب وعجب ، فما زالت بحليمة حتى أنبأتها بالخبر :

قالت ــ فيما رُوِى عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب :

« فوالله انه بعد مقدمنا به بأشهر ، مع آخيه ــ من الرضاعة ــ لفى بَهم لنا خلف بيوتنا ، اذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه :

ــ ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه ، فشقّا بطنه ، فهما يسوطانه

فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما ممتقعا وجهه . فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا له :

---

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٣/١

(٢) السيرة لابن هشام : ١٧٤/١ ونهاية الارب للنويرى : ٨٤/١٦

ـ مالك يا بُنى ؟

قال :

ـ جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعانى وشقّا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ماهو ..

فرجعنا به الى خبائنا ، وقال لى أبوه :

ـ ياحليمة ، لقد خشيتُ أن يكون الغلام قد أصيب ، فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به

فاحتملناه فقدمنا به .. والله انا لا نرده الا على جَدْع أنفنا » (١)

أصغت الأم « آمنة » الى القصة دون أن تبدو عليها بادرة خوف أو قلق ، حتى فرغت « حليمة » من حديثها ، فألقت عليها السؤال :

ـ أفتخوفتِ عليه الشيطان ؟

أجابت حليمة :

ـ نعم ..

فقالت آمنة :

ـ كلا والله ، ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنىّ لشأنا ، أفلا أخبرك خبرَه ؟

فهتفت حليمة : بلى !

فأقبلت عليها « آمنة » تحدثها بما رأت وسمعت حين حملت به ، ثم ختمت حديثها قائلة :

« .. فوالله ما رأيت من حِمل قط كان أخف من حمله ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وانه لواضعٌ يديه على الأرض رافعٌ رأسَه الى السماء .. دعيه عنك وانطلقى راشدة » ..

فظهر على « حليمة » أنها تذكر شيئا كان قد غاب عنها ، فلما استوعبته أفضت به فقالت : « ان نفرا من نصارى الحبشة رأوا ابنى

(١) السيرة لابن هشام : ١٧٤/١ ـ ونهاية الارب : ٨٤/١٦.

محمدا معى حين رجعتُ به بعد فطامه ، فنظروا اليه وسألونى عنه وفحصوه مليا ثم قالوا :

ــ لنأخذن هــذا الغلام فلنذهب به الى ملِكنا وبلدنا ، فان له شأنا نحن أدرى به وأعرف

فاختطفته منهم ، وقد هاجنى ذلك على رده اليك ، وهممت أن أفعل ، لولا ان مضارب بنى سعد كانت أقرب اليّ منك ، فعدوت نحوها ، ولم أشعر بالاطمئنان حتى دخلتُ به الحِمى »

ثم استعادت ذكرى بعيدة ، كانت قد نسيتْها لطولِ المدى واستطردت تقول :

وأذكر كذلك يوم انطلقتُ بولدى محمد من مكة لأول مرة ، فمر بى اليهود فسألتهم : ألا تحدثونى عن ابنى هذا ؟ وسردت لهم ما لقيت من بركته . فما راعنى الا أن قال بعضهم لبعض : اقتلوه . ثم سألونى : أيتيم هو ؟.. قلت وأنا أشير الى زوجى : لا .. هــذا أبوه وأنا أمه . فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه ! (١)

***

من المؤرخين المحدَثين ــ مستشرقين ومسلمين ــ مَن يقفون عند قصة الملكين هذه موقف الانكار ، فاذا ووجهوا بالذى رواه (٢) « ابن اسحاق » عن بعض أهل العلم ، من أن المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، حدث نفرا من أصحابه عن الملكين اللذين طهرا قلبه ، لاذوا بالقول بأن رواية الحديث ضعيفة السند ، ثم نقدوا المتن نفسه بأن الروايات تجمع على أن محمدا أقام ببنى سعد الى الخامسة من عمره ، وقصة الملكين هذه قد حددت سنه بما دون الثالثة ، وأرجعته الى مكة بعد فطامه بأشهر . فبين الروايتين ــ كما يقول الدكتور هيكل ــ تناقض صريح

ثم يستطرد الدكتور هيكل قائلا :

(١) طبقات ابن سعد : ١/٧١ قسم أول ــ ونهاية الارب : ١٦/٨٦
(٢) السيرة النبوية : ١/١٧٥ : ونهاية الارب للنويرى : ١٦/٨٦

« وانما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين الى هذا الموقف من الحادث ، أن حياة محمد كانت كلها انسانية سامية ، وأنه لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ما لجأ اليه من سبقه من الخوارق ، وهم فى هــذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبى العربى كل ما لا يدخل فى معروف العقل ، ويرون ما ورد من ذلك ، غير متفق مع ما دعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله ، وأن سنة الله لن تجــد لها تبديلا ، غير متفق مع تعبير القرآن المشركين بأنهم لا يفقهون ، وأن ليست لهم قلوب يعلقون بها » (١)

والحق أن ضعف السند ، كان يعفينا من مثل هذا العناء فى نقد المتن ، فالحديث الذى أورده « ابن اسحاق » مروى عن « بعض أهل العلم » ويحسبه ابن اسحاق ، « خالد بن معدان الكلاعى » وخالد هــذا هو « أبو عبد الله الشامى الحمصى » المتوفى فى العقد الأول من القرن الثانى الهجرى ، وقد ساق الحديث مرسلا ، لم يذكر فيه اسم الصحابى الذى رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

والحديث خبرُ واحد مرسل ، سقط فيه ذكر الصحابى ، مُجهَّل بقول ابن اسحاق : « عن بعض أهل العلم »

واذ لم يستكمل شروط الحديث الصحيح ، لم تكن بنا حاجة الى التعرض لنقد المتن بما ذكروه من تناقض صريح بين زمن القصة ، وبين الرواية القائلة بأن محمدا بقى فى البادية حتى الخامسة من عمره ، اذ ليس ببعيد أن تكون « حليمة » عادت فأخــذت ظئرها للمرة الثالثة ، متوسلة الى أمه بما اكتسب هناك من قوة وصحة ..

كذلك لم تكن بنا حاجة الى نقد الحديث بأنه يخالف معروف العقل ،

---

(١) حياة محمد : ٧٣

وهو نقد لا يسلم من الاعتراض ، وأولى منه أن يقال ان الحادثة تخالف مألوف الناس ومعتادهم ، أما العقل فلا يحيل أن تشق بطن ويخرج منها عضو ، على ما نشهد كل يوم فى جراحات الجسم ..

ولعل الذى يمكن أن يقال هنا فى اطمئنان ، هو أن القصة ، سواء أجريت على لسان الرسول أم على لسان تابعى ، فهى من قبيل التمثيل الذى يراد به نقاء السريرة وصفاء النفس ، وهذا قريب مما ذهب اليه « درمنجم » حين رأى الحادثة « لا تستند الى شىء غير المعنى الحرفى للآية القرآنية : ألم نشرح لك صدرك . ووضعنا عنك وزرك . الذى أنقض ظهرك » (١)

ولا أستبعد مع هذا كله ، أن تكون « حليمة » قد روت الحادثة بعد الذى رأت من بركة رضيعها ، فليس بمنكر عندنا ، ولا مستبعد فى عقولنا ، أن تتصور « حليمة » بأن هذا قد حدث فعلا ، بل انه ليتسق مع الذى اطمأن اليه أكثر المفكرين المعاصرين — وفيهم الدكتورهيكل — من « أنها وجدت فيه منذ أخذته بركة : سمنت غنمها ، وزاد لبنها ، وبارك الله لها فى كل ما عندها »

وكذلك يطمئن « بودلى » الى ما روى من « اعتراف قبيلة بنى سعد ، بأنهم وجدوا فيه منذ أخذوه بركة »

---

(١) أنظر هنا تفسيرنا لسورة الشرح فى كتاب « التفسير البيانى للقرآن الكريم » — ط المعارف بالقاهرة — وفيه كان اطمئناننا الى أن شرح الصدر انما هو انبساطه وتفتحه للايمان ، اذ أن استقراء كل مواضع ورود الصدر — أو الصدور — فى القرآن الكريم ، يؤكد انه لم يستعمله الا مجازيا بدلالة معنوية ، وليس بالدلالة الحسية على الجارحة

الفصل السادس

الرحيل

- سفر الى يثرب
- الوداع ..
- عودة اليتيم ..

سفر إلى يثرب

ونمضى مع « آمنة » وهى تحتضن وحيدها اليتيم ، بعد أن بلغ مقامه فى البادية غاية أمده ، وعادت به « حليمة » السعدية الى أمه فى البلد الحرام ، حيث مجد آبائه العريق ، ومجد موطنه العتيق

عاد فبدد بنوره ظلال الوحشة التى كانت تغشى دنيا أمه فى وحدتها القاسية وترملها الباكر ، وأحسبها لم تكف عن التحدث اليه عن والده الغائب ، ووصف شمائله ، ورواية قصة فدائه ، وما كان معقودا عليه من آمال كبار

وتفانت « آمنة » فى رعاية ولدها الوحيد : نور حياتها وسر وجودها ومناط أملها ، ومعقد رجائها . ويعترف كتّاب السيرة النبوية بما كان لها من أثر جليل فى هذه المرحلة من عمر المصطفى ، فيقول شيخهم « ابن اسحاق » :

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أمه آمنة بنت وهب فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا » (١)

وأثمرت العناية ثمرتها ، فبدت على « محمد » بوادر النضج المبكر ، ورأت فيه « آمنة » عندما بلغ السادسة من عمره ، مخايل الرجل العظيم الذى طالما تمثلته ، ووُعِدت به ، فى أحلامها ورؤاها ...

واطمأنت الى أن الأوان قد آن ، لكى تؤدى واجبا مفروضا ، وتحقق رغبة طال عليها الانتظار ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بهـا معـا الى « يثرب » كى يزورا قبر الحبيب الثاوى هناك

(١) السيرة : ١/١٧٧

وهش الابن لفكرة السفر ، وسره أن يصحب أمه فى زيارتهـا لمثوى فقيدهما ، وأن يتعرف ــ فى الوقت نفسه ــ الى أخوال أبيه المقيمين بيثرب (١) ، وكانوا ذوى شرف هناك وجاه ولعـله سـمع أمه غير مرة ، تقص عليه من حديث « أبى وهب بن عمرو» خال جده عبد المطلب ، أنه تصدى لقريش حين أجمعت على تجديد بناء الكعبة فقال : يا معشر قريش : « لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا .. لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس » (٢)

ولعله كذلك ، سمع منها قول الشاعر فى الخال أبى وهب :

ولو بأبى وهب أنخت مطيـــتى
غدت من نداه ، رحلها غير خائبِ
بأبيض من فـــرعى لؤى بن غالب
اذا حصـــلت أنســـابها فى الذوائب
أبىٌ لأخــذ الضيم ، يرتاح للندى
توسَّـــط جـــداه فروعَ الأطايب

***

وكان الجو صيفا ، والشمس تلهب صخور مكة وتصهر رمالها ، حين بدأت « آمنة » تتهيأ لرحلة طويلة شاقة ، تجتاز بها الأميال المائتين التى تفصلها عن يثرب ، حيث يرقد « عبد الله » الذى لم تره منذ نحو سبع سنين ..

ولم تكن تجهل مشقة السفر عبر الصحراء القاحلة ذات الرمال المتحجرة ، ولا غاب عنها ما يتكبده الضاربون فى أحشاء البيداء بسهولها الموحشة وقفرها المرهوب ، لكن شوقها الى زيارة يثرب ، كان أقوى من أن تغلبه عقباتُ سفر هو فى الحقيقة قطعة من العذاب ..

---

(١) ام عبد المطلب بن هاشم ــ جد الرسول ــ هى سلمى بنت عمرو بن زيد النجارية . فهذه خئولة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بنى النجار .
انظر « السيرة : ١/١٧٧ ونسب قريش : ١٥ و « جمهرة انساب العرب : ١٢ »
(٢) نقلها ابن اسحاق فى السيرة ، وعلق عليها بقوله : « والناس ينحلون هذا الكلام الوليد بن المغيرة المخزومى » : ١/٢٠٦

وشغلت أياما بتجهيز راحلتها واعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدولة ، ذى مظلة مرفوعة ، تحجب الشمس عن الابن العزيز ..

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال فى رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ، ضمت اليها ولدها ، وركبت راحلتها ، تصحبهما الجارية الوفية : « بركة أم أيمن » (١)

---

(١) طبقات ابن سعد . وانظر الزرقانى : ١٦٣/١ والنويرى : ٨٧/١٦

ألقت « آمنة » نظرة وداع على دار عرسها التى جمعتها فترة بعبد الله ، والتى وضعت فيها من بعده ولدهما الوحيد . ثم عرجت على الحرم فطافت به داعية ، وانفلتت من بعد ذلك نحو الشمال ، حيث كانت القافلة تتهيأ للتحرك ، وقد علا رغاء الابل مختلطا بضجيج المسافرين ودعاء المودعين !

وسار الركب فى أول أمره بطيئا وئيدا كأنما يعز عليه أن يفارق الحمى الأمين والديار الغاليات ، حتى اذا توارت معالم « مكة » خلف الجبال الشم التى تحف بها ، استقبل الراحلون طريق الشمال ، وحثوا الخطا قدر ما استطاعوا ، كيما يبلغوا سوق الشام فى ابانها ، ويعودوا الى حماهم والى الأهل والأحباب

ورفع الحادى عقيرته بالغناء ، يودع الديار التى خلفوها من ورائهم ، ويعد الابل بالراحة والظل والرى ، اذا هى سارت حثيثا فبلغت بأصحابها مايأملون . ورجّعت أرجاء البيداء صدى الحداء الحنون ، فرقّت قلوب الراحلين ، وسرت فى أبدانهم نشوة من شجن الذكرى ولوعة الفراق

وعطفت « آمنة » على ولدها فى حنو فياض ، ثم أغمضت عينيها تحلم باللقاء القريب !

وفى صمت الصحراء ، الا من رجع النغم ، صفت الرؤية الوجدانية لأم محمد ، فقطعت أكثر الطريق شبه غافية ، تنصت فى الحداء الى نداء شجى يتناهى اليها من بعيد ، فهفا قلبها الى الأليف النائى ، ورنت عيناها الى الأفق الشمالى ، حيث تراءت لها « يثرب » أشبه بواحة خضراء ، تحنو ظلالها الوارفة على أعز مرقد ، ويؤوى ثراها الطيب أغلى رفات ..

فاذا جن الليل وصمت الحادى ونام الرفاق وهجع الكون ، ضمت « آمنة » وحيدها الى صدرها ، وأسلمت نفسها الى رؤاها تسرى بها نحو

المزار ، وتستحضر لها روح « عبد الله » آيبة من مأواها البعيد المجهول ، لتحيي الزوجة الحبيبة الوفية ، وتبارك الابن الصغير العزيز !

***

وشارفت الرحلة منتهاها ، فجمعت « آمنة » نفسها وأقبلت على ولدها تحدثه من جديد عن أبيه ، ثم تغريه بأن يتطلع معها الى المدينة البيضاء التى بدأت تتكشف من وراء جبل « أحُد » حيث ينبسط السهل وتطمئن الأرض ، ويتموج عشبها الأخضر ، وتحنو عليها ظلال النخل الباسقات ..

وأناخ الركب رواحله فى « يثرب » ، ريثما تزود بالراحة والتمر والماء ، ثم استأنف مسيره شمالا ، بعد أن ترك « آمنة » وولدها وجاريتها فى حِمى « بنى النجار » ..

لم يكد المقام يستقر بها بين ترحيب القوم واحتفالهم ، حتى أمسكت بيد وحيدها محمد ، ومضت تطوف بالبيت الذى مرض فيه أبوه ، وتحج الى القبر الذى حوى رفاته ، ثم خلَّت بين ولدها وبين الحياة الجديدة مع أبناء أخواله ، فانطلقوا به الى ملاعبهم ومغانيهم ، يلعب ويمرح ،ويتعلم السباحة مثلهم فى الميـاه الجارية ، على حين عكفت « آمنة » على قبر الحبيب ، تناجيه حينا ، وتبكيه أحيانا ، وهى على الحالين راضية مستروحة، تجد من الأنس بقرب الفقيد ما يريح شجوها

وطاب لها العيش هكذا شهرا كاملا . نفَّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، كما تمتع ولدها بالجو اللطيف ، وبصحبة رفاقه من بنى الخال

وآن لها أن تعود بولدها الى أم القرى ، مهد مولده وموطن آله وعشيرته ...

ولا يدرى أحد كيف أمضت أم محمد ليلتها الأخيرة قبل أن تشد رحالها عائدة الى « مكة » ، وأغلب الظن أنها أمضتها فى مناجاة الحبيب الذى توشك أن تفارقه للمرة الثانية ، حتى اذا حان الرحيل ، انتزعت نفسها قسرا من ذلك الجو المعطر بالذكرى ، وودعت مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت ولقى ولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم وأنس عشرتهم ، ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها ، فعرجت على القبر تزور « عبد الله » للمرة الأخيرة ، وتكلفت الصبر وهى تجامل القوم الذين صحبوها مودعين الى ظاهر المدينة ، ثم أسلمت نفسها الى أشجانها ، والناقة تمضى بها وبمن معها نحو مكة ، بلا حداء ..

الوداع

واذ هم فى بعض مراحل الطريق بين البلدتين ، هبت ــ فيما يقال ــ عاصفة عاتية هوجاء ، أخذت تسفع المسافرين بريحها المحرقة ، وتثير من حولهم الرمال كأنه الشرر الملتهب . فتأخرت الرحلة أياما ريثما هدأت العاصفة وسكنت ثائرتها ، ثم استأنف الركب سيره وقد شعرت « آمنة » بضعف طارىء ، مكّن له من جسمها ما كانت تجد من شجن الذكريات

ولم يجزع « محمد » أول الأمر لما بدا على أمه من اعياء ، بل رجا أن تزايلها وعكتها بعد أن هدأت العاصفة ..

أما « آمنة » فأحست أنه الأجل المحتوم ، وكانت بحيث يشوقها أن تلحق بعبد الله ، لولا فرط تعلقها بولدها الوحيد اليتيم ..

وتشبثت به معانقة وقد انهمرت الدموع من عينيها ، فأخذ الصبى العزيز يجفف دمعها بيده اللطيفة ، مستمرئا نشوة الحنان تكاد تُنسيه رهبة الموقف ..

وفجأة .. تراخت ذراعاها عنه ، فحدق فيها ، فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفىء ، وان صوتها يخفت رويدا رويدا ، حتى يصير الى حشرجة هامسة

هنالك تضرع اليها أن تنظر اليه ، وأن تكلمه ، فيقال انها « نظرت لوجهه وقالت : (١)

بارك فيك اللهُ من غلام

يا ابنَ الذى من حومة الحِمام

نجا بعون الملك العلام

(١) الروض الانف للسهيلى . وانظر الحاوى للفتاوى : ٢/٢٢٢
والسهام هنا : الاقداح . اشارة الى اقتداء عبد الله من النحر بمائة من الابل ، فلماذا ضربوا عليها وعليه الاقداح عند الكعبة ، فخرج القدح اخيرا على الابل المائة .

فُودِى غداةَ الضرب بالسهام
بمائة من ابلٍ سوام

ثم أمسكت تستريح ، فلما استردت أنفاسها اللاهثة همست فى حشرجة الاحتضار :

« كل حى ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى . وأنا ميتة وذكرى باق ، فقد تركت خيرا وولدت طهرا .. »

وذاب صوتها فى سكون العدم ، فما تكلمت بعدها أبدا ..

***

وخيم على الكون صمت رهيب ، مزقته بعد حين ، صرخة صبى مفجوع ، انحنى على جثة أمه فى العراء يناديها فلا تلبى نداء ..

والتفت الى « أم أيمن » يسألها عن سر هذه الحياة التى انطفأت ، والجسد الذى همد وبرد ، والصوت الذى فنى وذاب ، فضمته المسكينة الى صدرها ، ولم تملك الا أن تقول دون أن تعى :

« انه الموت يابنى » !

الموت ؟!

ذاك الذى غال أباه من قبل ؟

ذاك الذى جرّع أمه كأس الترمل ، فما طاب لها عيش ولا اندمل فى قلبها الجرح لمدى سبع سنين طوال ؟!

ذاك الذى يطوى الأعزاء فى جوف الثرى ، فلا رجعة بعد ولا لقاء ؟!

ذاك الذى يمضى بالراحلين ، الى حيث لا عودة ولا مآب ؟

وتلفت اليتيم حواليه حائرا ، فاذا الكون هامد موحش ، كأنما غشيته غاشية من الخوف والرهبة فى حضرة الموت !

ولاذت عيناه الضارعتان بالسماء ، فاذا بها واجمة شاحبة ..

ومد بصره المجهد الى الأفق البعيد ، فاذا قطع ممزقة مشردة من غيوم كابية غبراء ...

هنالك آب اليتيم الى « أمه » فجلس قريبا منهـا يحدق فيها صامتا عاجز الحيلة ، على حين أخذت « بركة » تلف الجسد الراقد ، وتغمض العينين المنطفئتين ...

وتبعها مطرقا مستسلما ، وهى تحمل الجثة الى قرية « الأبواء » كيما تجهزها لضجعتها الأخيرة ، حتى اذا أوشـك الثرى أن يغيبها ، اندفع وحيدها اليتيم نحوها فتشبث بها ، يريد أن يستبقيها أو يبقى معها !

وعلا نحيب القوم من اشفاق وتأثر ، وخلوا بينه وبين أمه ساعة أو بعض ساعة ، ثم نحوه عنها فى رفق ، وأضجعوها فى لحدها ..

وهالوا عليها الرمال ..

عودة اليتيم

ووجمت أرباض « مكة » وهى تشهد الصبى الحزين الذى غادرها مع أمه منذ شهر وبعض شهر ، بادى الغبطة والتهلل والاشراق ، يعود اليها اليوم وحيدا مضاعف اليتم ، قد ذاق الحزن المر ، ورأى بعينيه مشـــهد الموت فى أعز من له ، وبلا المأساة الفادحة التى طالما حدثته أمه عنها ، وهى تستعيد ذكرى أبيه « عبد الله »

وسوف تذكر « مكة » عودة « محمد » هذه ، يوم يخرج منها بعد نحو نصف قرن ، تحت جنح الظلام ، مهاجرا بدينه الجديد الى « يثرب » فى صحبة شيخ صديق ، وقريش من ورائه تعدو فى أثره وتلح فى طلبه ..

وكذلك سوف تذكر « مكة » هذه العودة الحزينة لليتيم ، يوم يرجع اليها من دار هجرته عام الفتح ، ويدخلها ظافرا منتصرا ليحطم الأصنام التى شوهت جلال الحرم ، ويهتف من البيت العتيق :

« الله أكبر ! »

فترجّع أرجاء الجزيرة هذا الهتاف العالى ، ثم تتجاوب به آفاق الأرض على مر العصور والأجيال ...

الفصل السابع

الخالدة

- ذكرى باقية ..
- طيف لا يغيب ..
- عبر الأجيال ..

ذكرى باقية

« .. أفزعكم بكائى ؟
« ان القبر الذى رأيتمونى أناجيه ،
قبر أمى آمنة بنت وهب .. »
من حديث للمصطفى
(صحيح مسلم)

الى هنا تنتهى حياة « آمنة » على هـذه الأرض ، وينصرف عنهـا التاريخ حينا ليعود بعد نحو أربعة وثلاثين عاما فيفسح لها أعز مكان فى كتاب الخلود ، أماً للنبى المصطفى ، الذى تركته وحيدا يتيما فى بادية الحجاز بين يثرب وأم القرى ، فما بلغ مبلغ الرجال حتى تلقى الرسالة العظمى ، واصطفاه الله خاتما للانبياء عليهم السلام .

وقد عاشت « آمنة » أول ما عاشت ، ملء قلب ولدها العظيم ، يخفق لذكراها ويرق لها حنانا وشجوا ..

تلقاه جده « عبد المطلب » بعـد وفاتها ، وضمه اليه مسبغا عليـه من عطفه وحنانه ما لم يسبغ مثله على ولده ، « فكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه اذا خلا واذا نام فى فراشه » (١)

ذكر « الواقدى » ـ فيما نقله ابن سعد فى طبقاته ـ ان عبد المطلب كان يوضع له فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد منهم اجلالا له . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيهم أعمامه بأن يؤخروه عنه فينهاهم عبد المطلب قائلا :

ـ دعوا ابنى ..

ثم يجلسه معه ويمسح ظهره بيده »

(١) السيرة النبوية : ١/١٧٨

وكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده ، « فأحبه حبا شـــديدا ، فكان لايفارقه ، ويخصه بالطعام ، حتى أن بنيه اذا أرادوا أن يتغدوا أو يتعشوا قال : كما أنتم حتى يحضر ابنى » (١)

وكان لمحمد من حنان « فاطمة بنت أسد بن هاشم : زوج عمه أبى طالب » ثم من حب زوجه « خديجة » ولطف عشرتها وأنس صحبتها ، ما لامطمع فيه لمزيد .

لكن شيئا من هذا كله لم ينسه ذكرى يتمه المر ، ولم يمح من خاطره مشهد أمه الغالية وهى تموت بين يديه فى الصحراء

روى « ابن سعد » فى طبقاته ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مر بالأبواء فى عمرة الحديبية قال : ان الله أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه . فأتاه ، وأصلحه ، وبكى عنده ، وبكى المسلمون لبكائه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : أدركتنى رحمتها فبكيت .. (٢)

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : « خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوما وخرجنا معه حتى انتهينا الى المقــابر ، فأمرنا فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى الى قبر منها فجلس اليه فناجاه طويلا ، ثم ارتفع صونه ينتحب باكيا فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ان رسول الله أقبل الينا فتلقاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ما الذى أبكاك يارسول الله فقد أبكانا وأفزعنا ؟.. فأخذ بيد عمر ثم أومأ الينا فأتيناه فقال : أفزعكم بكائى ؟ فقلنا : نعم يا رسول الله . فقال ذلك مرتين أو ثلاثا ثم قال : ان القبر الذى رأيتمونى أناجيــه ، قبر أمى آمنـــة بنت وهب ، وانى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى » (٣)

---

(١) النهاية لابن الأثير : ٣/١٧١ والسيرة الحلبية : ١/٢
(٢) الطبقات الكبرى : ١/٧٧ قسم أول ، وانظر نهاية الارب ١٦/٨٧
(٣) صحيح مسلم : ١١/١٠٦ ، ١٠٨ ؛ وسنن ابى داود : ٢٠/٧٥ وانظر اخبار مكة للأزرقى — ص ٤٣٢

وهكذا شهدته الدنيا يلتفت أبدا الى تلك البقعة المهجورة حيث مضجع أمه ، ويرنو اليها بقلبه على تنائى الأبعاد ..

وعرفت « قريش » منه ذاك ، وهى تعلن الحرب عليه بعد المبعث ، وعلى من آمنوا معه ، حتى ان « هند بنت عتبة » حين مرت بالأبواء مع جيش المشركين المتجه الى المدينة ليثأر لقتلى بدر ، لم تر ما تؤذى به المصطفى عليه الصلاة والسلام ، أقسى من نبش قبر أمه « آمنة » ، ولم تجد لقريش رهينة أعز ولا أغلى من بقايا الجثة الثاوية هناك . رووا عن هشام بن عاصم الأسلمى أنه قال :

« لما خرجت قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحـد فنزلوا بالأبواء ، قالت هند بنت عتبة لزوجها أبى سفيان بن حرب : او بحثتم قبر آمنة أم محمد فانه بالأبواء ، فان أُسِر أحدٌ منكم افتديتم كل انسان بإرب من آرابها ؟! » (١)

لكن أبا سفيان لم يكد يذكر ذلك لقريش ، حتى أخذ منها الفزع كل مأخذ ، فصاحت بالرجل : « لا تفتح علينا هذا الباب » وكأنما روعها تمثلُ غضبة ابن آمنة والمسلمين للفعلة النكراء !

وانصرفت قريش عن الأبواء دون أن تجرؤ على العبث بحرمة القبر الذى استودعه الصبى اليتيم جثمان أمه منذ أكثر من أربعين سنة ، ثم لم ينسها بعد ذلك أبدا ..

ولم تنسه الأحداث الكبار ، على كرّ الغداة ومر العشىّ ، ذكريات أيامه الخوالى فى حضن أمّه الغالية ، ومشاهدَ رحلته الأولى معها الى يثرب ، بل تشبث بها خاطره وأبى أن يفلت شيئا منها . فعندما هاجر الى المدينة ، مضى يطوف بالربوع التى شهدته ــ قبل نحو نصف قرن ــ صبيا خالى البال ، ويستعيد ما كان له من مواقف هنـاك . حدثوا أنه

---

(١) تاريخ مكة للازرقى : ٨٤١ ــ وانظر السيوطى فى « الحاوى » ص ٢٣٣ ج ٢ والارب ، بكسر الهمزة : العضو

صلى الله عليه وسلم لما رأى حى بنى عدى بن النجار قال :

« ها هنا نزلت بى أمى .. وفى هذه الدار قبر أبى عبد الله » (١)

ونظر الى أطم بنى عدى ، فرقّ قلبُه وهو يقول :

« كنت ألعب مع أنيسة ــ جارية من الأنصار ــ على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من أخوالى . وأحسنتُ العومَ فى بئر بنى عدى بن النجار »

كلا ، لم ينس محمد صلى الله عليه وسلم تلك الأيام الخوالى ، كما لم ينس الدار التى شهدت مولده ، وقد أغلقت أبوابها بعد موت أمّه ، وتركت خلاء ..

وربما مر بها بين الحين والحين ــ أيامَ شبابه فى مكة ــ فوقف يسائلها عما فعلت بها الأيام ، ويتملى ذكرى مشهد أمه حين كانت هناك ..

***

ولقد هاجر من مكة وفيها المهد الحبيب ، فلما عاد اليها يوم الفتح وعلم أن دار مولده أخذها عقيل ابن عمه أبى طالب ، كره صلى الله عليه وسلم أن يستردها منه ، كما كره للمهاجرين أن يرجعــوا فى شىء من أموالهم أخذ منهم فى الله تعالى ، وهجروه لله (٢)

فبقى بيت المولد لعقيل وولده من بعده ، حتى اشتراه «محمدبن يوسف» فأدخله فى داره التى يقال لهـــا البيضاء ، فلم يزل كذلك الى أن حجت « الخيزران » ــ أم الخليفتين موسى وهارون ــ فجعلته مسجدا للصلاة ، وأشرعته فى الزقاق الذى يقال له « زقاق المولد » فحدثوا أن أهله كانوا يقولون بعد أن نقلوا منه :

ــ والله ما أصابتنا فيه جائحة" ولا حاجة ، حتى أُخرِجنا منه فاشتد الزمان علينا (٣)

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى : ٧٧/١ قسم أول .

(٢) أخبار مكة للأزرقى : ٤٥٧

(٣) النهاية لابن الاثير : ١٨٦/١ ــ والروض الانف للسهيلى : ١٠٧/١ ــ واخبار مكة للازرقى : ٤٤٦

طيف لا يغيب

« انى لأقوم فى الصـــلاة اريد ان
اطول فيها ، فاسمع بكاء الصبى فاتجوز
فى صلاتى كراهية ان اشق على امه »

(حديث شريف)

طواها الثرى قبل أن يستكمل ولدها الوحيد عامه السابع ، ورأته الدنيا من بعدها ينعم بالحياة الزوجية السعيدة ، كما رأته من بعد ذلك يصطفى للنبوة ، ويخوض معاركه التاريخية المظفرة ، ضد الوثنية والشرك والضلال ..

ولقد بقى طيفها الغالى يصحبه ما عاش ، وبقيت ذكراها تراوحه حيثما ذهب وأنى أقام ، فتستثير فيه أعمق عواطف البر والرحمـــة ، وترتفع بالأمومة عنده الى المقام الأسنى الذى لا يطاوله مقام ..

ذكرها فى مرضعه الأولى «ثويبة» مولاة أبى لهب ، فكان صلى الله عليه وسلم يَصِلها وهو بمكة ، كما كانت السيدة خديجة تكرمها . فلما هاجر الى المدينة ظل يبعث اليها بصلة وكسوة ، الى أن جاءه خبرُ وفاتها سنة سبع ، عند مرجعه من خيبر ، فلما دخل مكة ظافرا بعد ذلك بعام ، لم ينس فى غبطته بالفتح الأكبر ، أن يسأل بمكة : ما فعل ابنها مسروح ؟ فقيل له : مات قبلها ، ولم يبق من قرابتها أحد (١)

وكذلك فعل مع « أم أيمن » حاضنته الحبشـــية التى رافقته وأمه فى رحلتهما الى يثرب ، وشهدت معه وفاتها بالأبواء ، فعاش صلى الله عليه وسلم لايرى « أم أيمن » حتى يرق قلبه لذكرى الراحلة ويقول :

---

(١) الروض الانف : ٩/٢ ــ ونهاية الارب : ٨١/١٦

« هى أمى بعد أمى » (١)

***

وكان بره بمرضعه « حليمة السعدية » صدى لما يعمر قلبه الكريم من حب للأمومة فى أى صورة من صورها . حدثوا عن « أبى الطفيل » أنه قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يقسم لحما بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور ، اذ أقبلت امرأة دنت الى النبى صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه ، فجلست عليه . فقلت : من هى ؟ فقالوا : هذه أمه التى أرضعته » (٢)

وفى غزوة حنين ، بعد فتح مكة ، جئ الرسول صلى الله عليه وسلم بسبى سبى هوزان : ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومالا يُدرَى ماعِدَّته من الابل والشاه ، فأتاه وفدُ هوزان — ممن أسلموا — فقال قائلهم :

« يا رسول الله ، انما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك » — وكانت حليمة من بنى سعد بن بكر من هوزان ..

فلمست ضراعتهم قلبه الكبير ، واستجاب لمن استشفعوا بالأم التى أرضعته ، فقال لوفد هوزان ، وطيفُ أمِّه « آمنة » يباركه :

« أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . واذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : انا نستشفع برسول الله الى المسلمين ، وبالمسلمين الى رسول الله ، فى أبنائنا ونسائنا . فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .. »

فلما صلى رسول الله بالناس الظهرَ ، قام رجال هوزان فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

— أمّا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

فقال المهاجرون :

— وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وقالت الأنصار :

---

(١) الروض الانف : ٢/٧٩

(٢) رواه أبو داود فى سننه : ٤/١١٦

ـــ وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

واذ رأى عليه الصلاة والسلام تردد بعض القبائل ، مثل تميم وفزارة ، قال :

ـــ أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى ، فله بكل انسان ست فرائض من أول غنم أصيبه ..

فردوا الى هوزان أبناءها ونساءها (١)

لأن فيهن حواضن الرسول وعماته وخالاته من الرضاعة ..

***

وتمثل صلى الله عليه وسلم أمه « آمنة » فى « فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف » تلك التى رعته أيام صباه فى بيت عمه أبى طالب ، وكانت له من بعد أمه أما . ذكر « ابن سعد » فى طبقاته ، و « ابن هشام » فى السيرة ، و « أبو الفرج الأصبهانى » فى مقاتل الطالبيين ، عن ابن عباس أنه قال :

« لما ماتت فاطمة أم على بن أبى طالب ، ألبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم قميصه ، واضطجع معها فى قبرها ، فقال له أصحابه : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت بها . فقال : انه لم يكن أحد بعد أبى طالب أبر بى منها . انى انما ألبستها قميصى لتكسى حلل الجنة ، واضطجعت معها فى قبرها ليهون عليها » (٢)

***

وكذلك رأى ملامح من أمه الراحلة ، فى زوجه الرءوم خديجة رضى الله عنها ، تلك التى سكن اليها منذ بلغ الخامسة والعشرين من عمره الى أن لحقت بربها قبل الهجرة بثلاث سنين ، لم يستبدل بها سواها ولا ضم اليها زوجة غيرها ، ولا نسى لها طول عمره ، ما عوضته من حنان الأمومة الذى افتقده منذ ودع أمه فى الأبواء ..

---

(١) السيرة : ١٣١/٤

(٢) الاصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٨ ، ٩ ط الحلبى وانظر الاستيعاب ، الجزء الثامن

ذكر محمد صلى الله عليه وسلم أمه فى كل هؤلاء ..

وتمثلها فى بناته حين كبرن وصرن أمهات ، ورأى صورتها فى كل أم تحنو على ولدها ، فما عُرف عنه انه صلى الله عليه وسلم كان ينفعل بمثل تلك العاطفة الغامرة التى كان يجدها أمام مشهد الأمومة ، حتى لقد عز عليه أن يجد ما يُمثّل به لأصحابه رحمةَ الله بعباده ، أقوى من حنو الأم .. حدثوا أن سبيا قدم على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة « فاذا امرأة منهم قد تحلب ثديُها ، اذا وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقتْه ببطنِها وأرضعته . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أترون هذه طارحةَ ولدَها فى النار ؟ .. أجابوا : لا ، وهى تقدِر ألا تطرحه : فقال : الله أرحمُ بعباده من هذه بولدها »

وما أرتاب فى أنه صلى الله عليه وسلم ، كان عامر القلب بذكرى أمه ، حين ارتقى بالأمومة الى ما فوق البشرية ، فوضع الجنة تحت أقدامها وجعل البِرَّ بها مقدما على شرف الجهاد فى سبيل الله والدار الآخرة ، (١) اذ جاءه « معاوية بن جاهمة السلمى » يستأذنه فى الخروج للجهاد ابتغاء وجه الله واليوم الآخر ، فلما سأله الرسول : أحيّة" أمك ؟ وقال : نعم ، أمره أن يرجع اليها فيبرها

وعاود معاوية استئذانه فى الخروج للجهاد ، فأعاد الرسول سؤاله عن أمه ، ثم أمره أن يرجع اليها فيبرها

فلما كانت المرة الثالثة ، وعاد معاوية يُلح فى الظفر بمثوبة الجهاد ، كرر الرسول سؤاله : أحيّة" أمك ؟

قال : نعم ..

فما كان منه صلى الله عليه وسلم الا أن قال : ويحك ! الزمْ رِجلَها فَثَمَّ الجنة !

وان الانسانية لتصغى اليوم ، وغدا ، الى قول الرسول الكريم :

---

(١) راجع « تقديم بر الوالدين على الجهاد » فى « الجهاد » بمفتاح كنوز السنة ص ١٣٤ ط ١٩٣٤

« انى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطوّل فيها ، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى كراهيةَ أن أشق على أمه » (١) فلا يغيب عنها أن تلمح طيف « آمنة بنت وهب » ملء ذلك القلب الكبير الذى نبض بأسمى ما تعرف البشرية من عاطفة البِر بالأمومة وتكريمها ..

وأى مطمح للبشرية اذ تتسامى بالأم ، واهبة الحياة ، وراء الذى يقال من حديثِ ابن آمنة ، المصطفى بشرا رسولا :

« لو كنت أدركتُ والدىَّ أو أحدَهما وأنا فى صلاةِ العشاء ، وقد قرأتُ فاتحة الكتاب ، تنادى : يامحمد ، لأجبتها : لبيكِ » (٢)

---

(١) صحيح البخارى : ٦٥/١٠

(٢) رواه البيهقى فى شعب الايمان ، بسند فيه يس بن معاذ ، ثم قال : يس بن معاذ ضعيف . وانظر السيوطى فى « الحاوى » جـ ٢٣٣/٢

عبر الأجيال

لتباهى بك العصور وتسمو
بك علياء بعدها علياء
فهنيئا به لآمنة الفضـ
ـل الذى شرفت به حواء !
(البوصيرى)

ولقد ثوى المصطفى بعد أن أدى رسالته ، فى ثرى « يثرب » كما ثوى أبوه من قبل ، وآب الى المصير الذى يئوب اليه كل حى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » ولكنه عاش ملء الحياة فى حساب الانسانية والتاريخ ، وفى قلوب هذه الملايين ممن آمنوا برسالته ، وستظل الدنيا أبدا خاشعة أمام ذلك البطل الرسول الذى لم يكد يهتف هتافه الخالد : الله أكبر ، حتى هوى النسر الرومانى وانطفأت نار المجوسية وتصدعت صروح الوثنية » واذا العرب الجفاة البداة الذين لم يكونوا يخرجون من جزيرتهم الا لرحلتى الشتاء والصيف ، يطأون هذا النسر بالأقدام ، ويرثون عروش الفراعين والأكاسرة وتيجان الاباطرة والقياصرة ، ثم يندفعون شرقا حتى يبلغوا بالرسالة المحمدية أسوار الصين وينطلقون بها غربا حتى يصلوا الى ساحل بحر الظلمات ليشيدوا لدينهم دولة اسلامية فى أسبانيا ، معقل الكاثوليكية المتعصبة ، ثم يغذون السير شمالا حتى يقرعوا أبواب « فيينا » عاصمة امبراطورية النمسا ، ذات السلطان فى قلب أوربا .

أجل ، وستظل العقول أبدا حيرى أمام عظمة ذلك الانسان الذى ولدته أمه « آمنة بنت وهب » بشرا سويا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويذوق مرارة اليتم ولوعة الثكل ، ويحب ، ويتزوج ، ويلد ويموت ، شأن كل بشر ، ومع ذلك استطاع أن يوجه تاريخ البشرية كلها منذ مطلع

القرن السابع الميلادى ، وأن يقرر مصاير دول عظمى وشعوب عريقة ، ما كانت لتعرف شيئا عن شبه الجزيرة القاحلة الجرداء ، أو تحس وجودا لأهلها الذين يتنقلون على الابل بين فيافيها المقفرة وصخورها العارية ..

وهذا «كيتانى» الذى ولد وشب فى جوار الفاتيكان وحمى القديس بطرس ، يشد رحاله الى بلاد العرب فى صدر القرن الرابع عشر الهجرى ، لعله يكشف هناك عن سر خلود ذلك الراعى اليتيم ، وتعلق أتباعه به الى حد لايعرف التاريخ له مثيلا ..

وهذا مستشرق آخر ، يمسك قلمه ليتساءل فى دهشة وعجب ، عن المعجزة التى جعلت من ابن « آمنة » القرشية آكلة القديد ، بطل الأبطال كما وصفه « كارليل » ، رغم كونه النبى الأوحد بين أنبياء العالم ، الذى وُلد فى ضوء التاريخ الكامل ، ولم يأتِ بمعجزة غير كتاب عربى مبين ، يُصِرُّ على بشريته ، ويُنحِّى عنه كلَّ ماحف بابن مريم قبله من قداسة وألوهية ..

وهل عرفت الدنيا ابن أنثى قبل محمد أو بعده ، يغدو سلوكه اليومى — كما يقول هوجارت — سواء فى الأمور الخطيرة أو الأمور البسيطة ، القانونَ الذى يرعاه الملايين من أتباعه بكل دقة ، ويقلدونه عن يقين وايمان الى أيامنا هذه ؟

« كلا ، ولم يحدث أن اعتبر شخص واحد ، فى أية طائفة من طوائف الجنس البشرى ، المثل الكامل للانسان ، فقُلِّدت أفعاله بتمام الدقة ، كما حدث لمحمد بن عبد الله ، الذى وضعته آمنة بنت وهب، كما تضع كل أنثى من البشر » فى فجر يوم من أيام ربيع ، بجوار البيت العتيق ، ثم عاشت له حتى بلغ السادسة من عمره ، فسعت به الى زيارة قبر أبيه فى يثرب ، ثم ... خلّفته وحيدا فى الطريق الى مكة !

ولم تدر « بركة » وهى تودع الجسدَ الساكن ، تلك الحفرة النائية فى صحراء الحجاز ، أن الراحلة قد تركت وراءها ذكرا خالدا يقهر الزمن ويغلب الفناء .

ولا أحست وهى تبكى سيدتها فى ذاك القفر الموحش ، أن قوما ممن آمنوا بابن السيدة آمنة ، نبيا رسولا ، قد زاروا قبرها بعد أعوام ، فخُيل اليهم أن الجِنّ تنوح عليها منشدة (١) :

نبكى الفتاةَ البرّة الأمينه
ذات الجمال ، العفّةَ الرزينه
زوجة عبد الله والقرينه
أمّ نبى الله ذى السكينه
لو فُوديتْ لفوديت ثمينه
وللمنايا شفرةٌ سنينه
لا تُبقيَنْ ظاعنا ولا ظعينه
الا أتتْ ، وقطّعت وتينه

ولم يُقدر أحدٌ ممن شهدوا رقدتها فى مضجعها الأخير بالأبواء ، أن سوف يأتى حينٌ من الدهر تُبعث فيه ذكرى الراقدة ملء الحياة ، ثم لا يموت لها ذكرٌ من بعد ذلك أبدا ، بل تظل صورتها تتنقل عبر الأجيال باهرة السنا والبهاء ، ويظل اسمها خالدا على مر العصور والأدهار ، يحف به جلالُ أمومتها العظمى التى لبثت — وسوف تلبث دائما — تستثير أنبل مافى وجدان المؤمنين من انفعال ، وتُلهم شعراءهم روائع القصيد ، وهذه الدنيا تصغى فى الليلة المباركة من ربيع كل عام هجرى ، الى هتاف المحتفلين بذكرى ليلة المولد التى قامت فيها « آمنة » عن ولدها المصطفى سيد البشر :

(١) رواه السهيلى فى الروض الانف ، ونقله السيوطى فى الحاوى للفتاوى : ٣٢٢

كيف ترقى رقيك الأنبيـــاءُ
يا سـماءً ما طاولتها سـماءُ
لم يساووك فى علاكَ وقد حا
ل سـنى منكَ دونهم وسـناء
انما مثّلوا صـفاتك للنـا
س كما مثّل النجـومَ الماءُ
تتباهى بك العصورُ وتسـمو
بكَ عليـاء بعـدها عليـاء
فهنيئـا به لآمنـةَ الفضـ
ـلُ الذى شرفتْ به حـواء
يوم نالت بوضـعه ابنةُ وهب
من فخار مالم تنله النسـاء (١)

***

سلام على « آمنة » سيدة الأمهات ، ووالدة النبى المصطفى المبعوث خاتما للأنبياء ..

(١) من همزية البوصيرى : انظرها فى ديوانه

فهرس

صفحة

طبع بمطابع دار الهلال
الطبعة السادسة ـ طبعة مزيدة منقحة : ١٩٧٢